شوق

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

الكتاب: شوق

- **المؤلف: ريم برغش**
- **نوع العمل: تربية توعوية**
- **الطبعة الأولى 1440 هـ - 2020 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

- **رقم الإيداع : 2020 / 3456**
- **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6808-00-3**
- الغلاف: ببلومانيا
- تنسيق وإخراج: فريق ببلومانيا
- المدير العام: جمال سليمان
- العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة
  عنوان (2): 38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 0020226061014
- محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.bbibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

شوق

رواية

ريم بن غش

www.bbibliomania.com

2020

الإهداء

....

....

....

....

....

....

....

....

إهداء

إلى أمي ولية قلبي ..

و إن كانت فكرةُ الأشباهِ الأربعين ليست خرافة ..

فهنيئاً للأربعين ملاكاً التي تشبهكِ!!

إلى عينيكِ يا شوق ..

هناكَ حيثُ يقطنُ قلبي!!

*****

زدني في العشقِ فلسفةً ..

في الشوقِ فلسفةً ..

في كلّ ما يدورُ حولنا فلسفةً ..

أحبكَ أنت و ما أجملكَ حينَ تفلسفُ الأمور!!

*****

تسألينني فيما إذا كنتُ أشتاقكِ يا شوق، فأجيبكِ: نعم، اشتقتكِ البارحة، و أشتاقكِ اليوم، و سأشتاقكِ غداً ..إنني أشتاقكِ يا شوق كلّ يوم، و في كلّ يومٍ يزدادُ اشتياقي إليكِ فوقَ الاشتياقِ اشتياقاً .. و يقفُ الاشتياقُ أمامَ اشتياقي حائراً ..يحاولُ من أجلِ اشتياقي أن يسكبَ عليّ أضعافهُ اشتياقاً ..

فلا مشتاقٌ بقدري أنا، و لا مشتاقٌ إليها كروعتكِ يا شوق!

تضحكينَ بعذوبةٍ على إجابتي و تقولين: أهل كانت كلُّ تلكَ الفلسفة من أجلِ كلمة "أتشتاقينني"؟! ما زلتِ كما أنتِ يا ريم، ترويِنَ القلوبَ العطشى بعذوبةِ كلماتك، دائماً ما تمطريني كلاماً جميلاً، و دائماً ما تذهليني بفلسفةٍ جميلة. فيصدرُ من أعماقِ داخلي صدى ضحكةٍ كنتُ قد خبّأتها لأجلكِ ..ماذا عسايَ أفعلُ يا شوق مع شوقي لكِ؟ أنا هنا في قارة، و أنتِ في قارةٍ أخرى، تقطنينَ في تلكَ البلاد التي لطالماكانت للجمالِ آلهة، للحضارةِ عنوان، للحنانِ آية، و للحبّ أسطورة.

لقد عصفت بي رياح الغربة إلى هنا، و أنتِ ما زلتِ صامدة في تلكَ البلاد التي تداعبها مياهُ المتوسط بينما تتشبثُ بذراعها فلسطين أرضُ القوةِ و الشهامة، و يسري في جسدها شريانُ الفرات جاعلاً منها قلباً أوكسجينه محمّلٌ من رئةِ تركيا و يأخذُ نقاوتهُ من وريدِ العراق، و تستندُ عليها شقيقتيها الأردن و لبنان.

من سوريا، من تلكَ البلادِ الفاتنة، مع كلِّ تفتُّحِ زهرةِ ياسمين
يضخُّ القلبُ عطراً، و في سوريا كلّ ما كان و كلّ ما هوَ كائنٌ
و كلّ ما سيكون يستحقُّ العبادة و الغوص فيها أبدعهُ الخالقُ فيها.
سوريا التي عانقت سماؤها أرضها فجعلت منها جنّةَ الله على الأرض!
سوريا التي حالما تنطقُ باسمها حتّى تنحني أفكاركَ فخراً بحضارةِ
الماضي، و تمطرُ عينيكَ لخرابِ الحاضر، و يخفقُ قلبكَ لهفةً للأملِ
المستقبلي الذي اتحدّ ساجداً مع شعبها، داعياً ربّه بأن يدهسَ السلامُ
معاني الألم و بأن تعانقَ الأمُّ سوريا أطفالها من جديد ..
أطفالها الأحياء القادمون من الغربة، أطفالها القادمونَ من رحمِ الحياة
إلى سرير المجد. لا نريدُ بعدَ الآن أن تعانقَ سوريا جثامينَ أبنائها ..
فعارٌ على زمنٍ جعلَ من حضنِ الوطنِ مقبرةً لأبنائه!

إنني أبكيكِ كلَّ ليلةٍ يا شوق ..
أبكيكِ وطناً، أبكيكِ أماً، أبكيكِ رفيقة ..
أبكيكِ مُشتاقاً إليها ..
عزائي الوحيد أنني في يومٍ ما سأحتضنكِ .. سأسقطُ
الأشواقَ التي أهلكتني أرضاً ..

صدقيني يا شوق عندما أقولُ أنني يتيمةٌ بدونِ حضنكِ ..
صدقيني عندما أقول أنني لن أشعرَ بالانتماء إلا لحضنكِ ..
و صدّقيني عندما أقول أنّ هذهِ ما هيَ إلا مأساةٌ جماعية نتقاسمها جميعنا!
أنا أحتاجكِ يا شوق، فليسَ لي في العمر إلا عمرٌ واحد ..
و لكنّكِ أبدية!
أؤمنُ أنّكِ تشتاقينني، أؤمنُ أنني في أعماقكِ ..
و لكنّ اشتياقكِ لي ما هوَ إلا اشتياقٌ من بينِ ملايينِ الاشتياقات التي تعيشينها ..
أمّا اشتياقي فهوَ لكِ وحدكِ يا شوق بما فيكِ من معالمَ تهزّ كياني!
يا شوق ..أنتِ ملايين أشتاقهم في جسدٍ واحد ..
و بشكلٍ آخر أنتِ كلُّ ما أعشقهُ أنا في مكانٍ آخر!!

عزيزتي شوق ..
يا مَن قطرةُ اسمها تنهالُ عواصفَ أشواقٍ عليها!
أودّ إخبارك كم أشعرُ أنكِ عظيمة!

أتذكرينَ تلكَ الليلة قبلَ سنوات؟ كنّا نعدُّ حساءَ إبداعٍ من جميلِ أفكارنا. كنتِ تلبسينَ فستاناً أسود، لقد سحرتني عندها ببياضِ بشرتكِ، كنتِ تبدينَ كقمرٍ يضيئ عتمةَ فستانكِ.

أذكرُ أنّ نسمةً باردة سارت على بشرتكِ الناعمة فركضتِ مسرعةً ضاحكةً إلى الداخل. لم يمضِ على ذهولي بتصرفكِ ثوانٍ حتّى خرجتِ بشالٍ أحمر يزيّنُ كتفيكِ. كانت كلُّ حبكةٍ من شالكِ الصوفيّ تقبّلُ نقطةً من بشرتكِ، تهيمُ بها أكثر. ذهبتِ جميلةً .. و عدتِ أجمل.

سألتكِ يومها عن سرّ عشقكِ لهذا الشال، فلم تكن تمضي دقيقة إلا و قد داعبتِ فيها شالك، شممته و عانقتهِ بشدة!

ضحكتِ تلكَ الضحكة التي أذوبُ فيها و أخبرتني بأنه مع كلّ حبكةٍ في شالكِ هناكَ ذكرياتٌ لكِ مع كلّ الذينَ أحبوكِ.

و عندها سألتكِ: و أينَ هيَ حبكتي يا شوق؟ يجبُ أن تكون عظيمة كعظيمِ حبي لكِ .. كعظيمِ العاطفة التي تعزفُ على أوتارِ أضلعي عندما أسمعُ باسمكِ!

أذكرُ أنّ عينيكِ قد برقتا عندها، فحسبيَ الله لستُ أدري، أَ شوقي للإجابة جعلَ عينيكِ أجمل في بحرِ عينيّ، أم أنّ جميلَ الأحرفِ

التي كنتِ ستنطقينها أرسلَ سحراً خاصاً لعينيكِ قبلَ البدء لتدفعاني
للاستعدادِ بكلّ ما أوتيت من قوةٍ حتى أُنصت لما هو قد كانَ آت!

قلتِ لي عندها: يا ريم .. إنّ هذا الشال قديم، ليسَ بقديمٍ جداً و لكن قديم لجعلهِ أثراً تاريخياً من الماضي تفخرينَ به! أكملتِ: مَن أعنيهِ بهذا الشال يقيمُ في مكانٍ آخر، مكانٍ
تشتهيهِ كلّ النفوس و لكن لا يصلُ إليه إلاّ مَن قدّم كما
قدّمَ لي أحبائي.
فأجبتكِ: يا لأمسيتكِ يا شوق، أَهل تفلسفينَ الأمور؟ لأنني
لستُ أفهمكِ، أم أنني أنا مَن طوى النعاسُ جناحيهِ فوقَ عينيّ؟
زدتني من جمالِ شفتيكِ ابتسامة و أكملتِ: إنَّ أملي فيكِ أنتِ و
أمثالك، حبكاتُ هذا الشال هي حبكاتُ الماضي، أمّا حبكتكِ
سأخيطها عندَ أوانها فتكونُ حبكةَ الحاضر و لكن حبكةَ
الماضي لأناسِ الحاضرِ الذي يتلو حاضركِ ..
و هنا حانَ دوري لأبتسم فقد سمعتُ من نوتاتِ حروفكِ أعذبها،
أريدُ للأوانِ أن يأتي لأفخرَ بحبكةٍ تخصّني تزيّنُ كتفيكِ.
سألتكِ: شوق .. كيفَ سأعرفُ حبكتي؟!

أوَ حبكةُ الماضي و الفخر كحبكةِ الحاضر و الأمل و المستقبل و السلام؟

أجبتِ: الأملُ الذي ترسمينه سيعدُّ فخراً عندَ تحقيقه!

و لكن ما عساي أفعلُ معكِ يا شوق؟

أذكرُ أنني سهرتُ معكِ ليلتها بسؤالٍ يتلوهُ جواب و الجوابُ ذاته يطرحُ آلافَ الأسئلة، و لكنني و صلتُ لما أريد ..

حبكةُ الأملِ التي تخصّني و تخصّ مَن لعلّهُ يتعلّقُ بها كنتِ ستخطينها بلونٍ أخضر ليبعثَ الاطمئنان في نفسك و يذكّركِ أنّ السلام لكِ و لي و لجميعنا قُدّرَ لهُ أن يكون و لسوفَ يكون!

آآهٍ يا شوق ..

نحنُ أمّةٌ خُلقت لتعيشَ في بحرِ السلام، و لكنّ بعضنا خرجَ عن بحره ظانّاً بأنّ حياةَ البرّ تنجيه، و أمّا بعضٌ من بعضنا فقد شهقَ الموتَ في رحلتهِ الأنانية، و البعضُ الآخر من بعضنا فقد أعانتهم أرواحهم الشريرة التي كانت غامضةً وراءَ الستارِ اللاأعرفه، فتحوّلوا لتماسيح عادت مع تماسيحَ أخرى لتعكّر صفو مائنا و قدرنا من السلام!

أتعلمينَ يا شوق؟

الحربُ لم تخلق منّا أناساً آخرين بل إنّما مسحت معالمَ ظواهرنا كما مسحت عوالم وطني!

فأمّا نحن فأصبحنا نحن و هم، قسمنا أظهرَ جوهرهُ و القسم الآخر لم يكن سوى علبةٍ مزخرفةٍ كما أبانوا لنا من الخارج، و لكنّ ذواتهم كانت فارغة أو ربما أمكنني القول ذواتهم غيرُ مطابقةٍ لخوارجهم. ظواهرهم كانت تنطقُ حسناً، لكنّ الحرب أظهرت قباحةَ معاجمهم.

على العكس من معالمِ وطني ..

وطني على الرغم من حربه .. دماره ..

على الرغم من الرمادِ الذي شوّه نسيمه العذب ..

على الرغم من الكآبةِ التي تسيطرُ على جوّه ..

إلاّ أنّه لا يزالُ جميلاّ!

يا شوق ..

وطني ليسَ أجمل وطنٍ في العالم، لكنّه بموجبِ القناعةِ التي توصلتُ إليها فهو عالمٌ كلّ ما فيهِ جميل!

وطني جنّة و مَن لا يتمنّى بأنْ للجنةِ ينتمي؟!

دعي عنكِ كلامي و أخبريني، هل ما زلتِ متألمة على وفاةِ أمّك؟!
لقد كانت آخرَ مرةٍ سألتكِ فيها هذا السؤال منذُ أسابيع، و قد أجبتِ فيها:
أوَ هو الألم كالعطش تروينهُ فيزول؟ نعم، إنني أروي عطشي يا ريم و لكن بألمٍ أكبر!
قد لا تفهمين معاناتي فأمكِ يا ريم بجانبكِ، تدعمكِ، تنيرُ حياتكِ بوجودها .. بكلامها .. بكلّ ما يصدرُ عنها ..
و عليّ بهذا ألا أنسى عندما أخبرتني في لقائنا الأخير عندما تلاقت أطيافنا عبرَ الحلم أنكِ مع ازديادِ عمركِ تزدادينَ حبّاً لأمكِ و تعلقاً بها .. أتنسينَ أنكِ قلتِ بأنكِ تكبرينَ عمراً و تشعرينَ مع أمكِ كما لو أنكِ لا زلتِ طفلة؟

لقد أخبرتني بأنكِ أصبحتِ كجزءٍ من أمكِ، تحتاجينها بشدة ليكتملَ وجودكِ و لكن هيَ كلّ أنتِ في ذاتِ الوقت!!
أمّكِ و بفضلِ الله و لحبّه لكِ أنعمَ عليكِ بنعمةٍ على شكلِ جنّة .. جنّةٍ من أربعةِ حروف تنطقينها فتشكّلُ: ماما!

الجنّةُ تحتَ أقدامِ الأمهاتِ يا ريم ..

و أنتِ يا لجمالِ حظّكِ تعيشينَ مع الجنّةِ ذاتها!

موتُ أمّي كانَ بطيئاً يا ريم، كما لو أنّ سرطاناً كانَ يمزّقها

و لم تظهر أعراضهُ إلا في الوهلةِ الأخيرة عندَ وفاتها!

ما ورثتهُ عن أمي هو أنني عربية ..

أكملتِ يا شوق أحرفَ و تنهداتٍ عميقة و أنا أتألمُ لمعاناتكِ:

ما يؤلمني أكثر يا ريم هو الوحدة، إنّ الوحدةَ قاتلة، إنّها موتٌ

بطيء يجدُ الشخصُ فيهِ نفسهُ تعزّي نفسها و أنفاسهُ تتسارع

لتنهي ما حُتّمَ عليها في هذي الحياة من عدد!

إنّ إخوتي يا ريم ورثوا عن أمّي عربيتها أيضاً، و لكن لم يرثوها

معنىً يجمعنا، بل إنّما كلمة حُتّمت علينا و لكن لا تجمعنا على

صلة!

ماذا أخبركِ عن أبي يا ريم؟

أبي الذي تمزّقت أعماقهُ و غدا أبي على غيرِ شكلِ أبي ..

إنني أكرهُ ما حدثَ معهُ من مأساة ..

أيُّ فاجعةٍ هي تمزّقُ أباً إلى اثنتين و عشرينَ جزءاً؟ كلّ الأجزاءِ

تنتمي إلى الأرض و لكن ما بينَ جزءٍ و آخر فلترسم الأرضُ
ما شاءت من حدود!
يا لعظيمِ ألمكِ يا شوق!
و هل للشوقِ من اسمكِ نصيب؟
إنّ الشوقَ في اسمكِ تكاثرَ لأشواقٍ يتيمة، و غدوتِ أنتِ كملجأٍ
لها و يتوجّب عليكِ رعايتها .. لا، و بل استضافةُ أشواقٍ أخرى
تشبهها أو تزيدُ عليها بأنّ مهدها يتطلّبُ ألماً أكثر!

كلّنا نعاني في هذي الحربِ يا شوق ..
تتفاوتُ كميّةُ الخسارة بيننا كما تتفاوتُ كميّةُ الألم ..
لكن خسارةُ الوطن هي الأعظم!
قد قُدّرَ لطفلٍ أن يفقدَ أباهُ، أن يحرمَ كلمةَ "ماما" أو "بابا"،
أن يعيشَ يتيمَ حرب.
قد قُدّرَ لأمٍ أن تخسرَ ابنها شهيداً. إنّهُ لَفخرٌ طريقُ الشهادة
و لكن أيّ فخرٍ يجمعُ دموعها ليلاً ليسكبها فوقَ قلبها المحترقِ
شوقاً عساهُ يهدأ؟

قد قُدّرَ أن تُحرمَ شابّةٌ من زوجها الذي لم يمضِ على زواجهما شهرين، هو بنظرها بطلُ قلبها و لكن بنظرِ الحرب لا مفرَّ له من أن يكونَ

شيئاً سوى الضحيةِ التي تقيمُ الحربُ عليها دعائمها.
قد قُدّرَ أن تخسرَ عائلةٌ سقفاً .. جدراناً .. بل بيتاً.
قد و قد و قد، و كلّ "قد" اضربيها بآلافِ الحالاتِ من "قد"، ثمّ اجذريها ليصبحَ الناتج سوريا هي أكبرُ المصابين! أوجاعنا هي أوجاعنا .. أوجاعُ أحبائنا أيضاً ..
و لكنّها لن تتجاوزَ ذلكَ القدر الذي نعرفهُ منَ الأشخاص!
أمّا أوجاعُ وطني فهي أوجاعُ الجميع .. أوجاعي .. أوجاعك .. أوجاعنا .. أوجاعُ مَن عرفناه و مَن لم نعرفه.
أوجاعُ وطني هي الأكبرُ و الأعمق!

ما يحيّرني أنهُ لم تستضف أفكاري يوماً أن سوريّتي قد تصبحُ فريسةَ الحرب و إلاّ لكنتُ تخليتُ عن عاداتي العربية و ألقيتُ بضيفِ أفكاري إلى عالمِ اللاعالم.
ما يزعجني أننا ببساطةٍ شعبٌ بسيط، تكملُ حياتهُ بعائلةٍ صغيرة

تتقاسمُ رغيفي خبز، ليسَ لنا ذنبٌ بالحرب و لا حياتنا أوحت بمستقبلِ حرب.
ما يؤلمني أن الحربَ قد باتت ثقيلةً جداً، لم يعد بالوسعِ تحمّلها

فهي لم تترك شيئاً إلاّ و أخذته، ماذا عساها تريد أكثر؟!
و ما يخيفني أن تكونَ قضيةُ الحربِ في بلدي كقضيةِ فلسطين .. عام .. عامين .. و من ثمّ أعوام و لا زالت تعاني!
ما يرعبني بحكمِ فتاةٍ متعلّمة درست التاريخ في سنواتِ المدرسة و سمعت باتفاقيةِ سان ريمو التي كان من شأنها تقسيمُ بلادِ الشام إلى سوريا، فلسطين، الأردن و لبنان، عندما درستُ تلكَ الاتفاقية لم أقرأ بينَ السطور أنّ لاتفاقيةٍ كهذه قد يكونُ هناكَ جزءٌ ثانٍ و الذي لا زلتُ لا أستوعبُ فحواه!!

يا زرقةَ السماء، لماذا سرقتِ بهجتكِ من سوريّتي؟
لقد سرقتِ فرحةَ الملايين تحتَ اسمِ سوريا ..
و ماذا فعلتِ بالبهجةِ بعدها؟
لقد أفسدتِ البهجةَ على نقاءِ زرقتكِ و على صفاءِ سوريا،

فغدت كلتيكما أرضٌ و سماء و ما بينهما رماد!
تصاعدَ الرماد من ركامِ الأرض و راحَ يكملُ رحلتهُ ليأسٍ يخيّمُ
على لونِ السماء!

لو أنّ الحربَ نوعٌ من أنواعِ الزلازل، لكنّا قلنا:
كارثةٌ طبيعية عاثت فساداً لدقائق و رحلت و رحلَ معها الأحبة ..

و لكن عشنا ألماً من الألم.
لكنّ الحربَ مكيدةٌ من بشر و لا زالت تعيثُ فساداً منذُ
سنوات و حتّى الآن، و ليسَ لها ألمٌ من الألم، بل إنّما في
الدقيقة قد تزدادُ آلامكَ آلاماً!
الغريبُ في الأمر أننا نحاربُ من أجلِ شيءٍ رُسمَ لنا في أدمغتنا
فنسينا كوننا بشراً. رحنا نقاتلُ بلا إنسانية، جاهلين أو ربما متجاهلين
أنّ الطرفَ الآخر بشرٌ مثلنا!!
فإذا كانت الحربُ قد رمت أطفالاً تحت اسم يتامى أهل، فقد رمت
أيضاً أشخاصاً تحتَ اسم يتامى إنسانية، لكنّ الفرق أنّ يتامى
الأهل يعيشون بمرارة .. يتألمونَ على ما راح و على الذي يجري،

لكنّ يتامى الإنسانية فقد شنقوا إنسانيتهم بإرادتهم، فضّلوا أن يكونوا عاقّين و مجرمين في سبيلِ أن ينعموا بحياةٍ ما هيَ باقيةٌ لأحد!

في البداية ألقيتُ اللوم على أولئكَ الذينَ يتبعونَ يتامى الإنسانية، يعملونَ لصالحِ الفاسدين و يعيشونَ تحتَ رحمةِ أولئكَ المجرمين.

نعم ..

الفسادُ على مستوى أفراد يبقى فساداً، ستسقطُ فاؤه، سينهُ، و ألفهُ و من ثمّ دالهُ يوماً ..

و لكن أن يدعمَ أفرادٌ كلّ فاسد من الفاسدين فهنا تكمنُ الكارثة!

ففسادٌ يولّدُ فساداً و في كلّ مرةٍ قد يجهضُ الفسادُ بفسادٍ ما و لكن توائمُ ذلكَ الفساد لا زالت حيّةً و ستتعاظمُ و تنجبُ من جديد!

لكن بعدها عشتُ ذاتَ أحدِ الأشخاصِ في داخلي ..

ما سبيلُ ذلكَ الذي يريدُ إعالةَ فراشاتٍ تطيرُ في جوّ أوكسجينه الذل و نسماتهُ مصنوعةٌ من الجوع فترمي بتلكَ الفراشات إلى عاصفةِ الحرمان، و تبقى الفراشاتُ ما بينَ نسمةٍ و نسمة و كلّ

نسمةٍ هي أشدّ وجعاً من التي سبقتها!
و هل لقلبِ أبٍ أو أخ أن يشهدَ على ذلكَ دونَ حراك؟!
فأن تمشي مع الرياحِ في العاصفة أهونُ عليكَ من أن تمشي
عكسها، مع أنّ سبيلَ نجاتكَ في الحالتين ضئيلٌ جداً و لكن أن
تمضي أياماً في شرفِ المحاولة خيرٌ من ألا تمضي أنتَ و محاولاتك!
لذلكَ قدّرت عليّ إنسانيتي و ما سمعتهُ أذنايَ من تجارب
و ما انتقى عقلي من أفكار أن أعيشَ الجانبَ المظلوم لكلٍّ
منّا. فلكلٍّ منّا جانبٌ يُختارُ له لا يَختارهُ و يُحتّمُ عليهِ أن يخوضهُ
كفيفَ القلب و أبكمَ العقل!
مؤلمٌ ذلكَ الشعور الذي ينتابكَ عندما تعرفُ أنّك لن تعيش
لكنّكَ مع ذلكَ تعيش. معادلةٌ هي تنتجُ عنها معادلة:
جرعةُ ألم، جرعةُ خوف و جرعةُ خذلان و ذل تعطي انعدامَ الرغبة

بالحياة!
انعدامُ الرغبةِ بالحياة مع آمالٍ و معداتٍ خاوية تعتمدُ عليك تعطي
اللاحياة باسمِ الحياة!
هل فكّرتَ يوماً بما أقول؟

هل سافرتَ عبرَ عقلك يوماً إلى مواقفِ الألمِ تلك؟
أن تبقى حياً في زمن الحرب، إنّه لشيءٌ تحسدُ عليه ..
أن تحيا باسمِ الموت تحتَ طائلةِ الحياة، أمرٌ يزيدكَ من الموتِ قرابة ..
و لكن أن تعيشَ باسمِ حياةٍ أخرى، فهنا تكمنُ رجولتك!..
أن تعرفَ أنكَ ذاهبٌ في معركةٍ و لن تعودَ منها و مع كذلكَ تقررُ أن تخوضها باسمِ نصرِ الوطن ..
أن تشاركَ في أمرٍ تخافُ عواقبهُ و لكن تفعلهُ لإطعامِ معداتٍ خاوية في آخرِ الليل ..
كثيرون يتمنونَ الموت، و لكنّ فكرةَ موتهم تصعبُ عليهم، لا لحبّ ذات و لا لعشقِ حياةٍ و لكنّ حياتَ أحبائهم رهنُ حياتهم!

أنتظركَ عندَ قارعةِ الطريق، فإمّا أ

أن أموتَ شوقاً لحينِ عودتك ..

و إمّا أن تشتاقني قذيفة فألتقي بها

و تفجّر ما في كلّي من شوق!!

أتدرينَ يا شوق، بتّ أخافُ أن أكلّمَ أحدهم كي لا أجدَ
في حديثهِ فاجعةَ فقدان أو فاجعةَ موت!
أكلّمُ أحبائي عسايَ أخفّفُ عنهم جرحَ فقدانهم و لستُ أدري بأنّ
آلامهم معدية، تنتقلُ إلى أعماقي فتصيبني بجروحٍ أيضاً!
أحاولُ شطفَ دموعهم و أنسى بأنني لذلك أستخدمُ مياهَ قلبي،
لقد باتَ قلبي عطشاناً لفرحة .. عطشاناً للفرج!
ربّي إنّ بيدكَ ملكوتُ تلكَ المياهِ التي تروي جفافي، اللّهم قل
لتلكَ المياه أن تمطرني خيراً فإنما أمركَ أن تقولَ للشيء
كن فيكون! اللّهم ارزقنا بفيضانِ عطفٍ منكَ يغسلُ دماءنا
و يمحي أوجاعنا و يفرشُ على أرضِ سوريا شلالاً من سلام!

في سوريتي كل يومٍ هو عيدُ الأم، أمٌّ تودّعُ ابنها، تدعو له بأن
يعودَ لها من الخدمةِ العسكرية سالماً في حينِ تطلبه أمهُ سوريا ..
يلبّي النداء .. يعانقها بشدة .. يطولُ العناق .. و يتحوّلُ لعناقٍ
أبديّ. يصلُ الخبرُ لأمِّ الشهيد تبكي و تبكي .. هل من جسدٍ
لابنها لتعانقه، هل من بقايا جسدٍ لتضمها، هل من قبرٍ يحملُ
لافتةَ اسمِ ابنها بإمكانها أن تزوره، تُودعُ عليهِ قُبلة بدلَ أن

تطبعها على جبينِ ابنها؟!
الجنّةُ تحتَ أقدامِ الأمهات ..

يودّعُ أمّهُ ليمضي في خدمةِ الوطن، يقولُ لها "أمي ادعي لي"، فتقول: "ربّي يفرحني فيك يا ابني". لقد تحقّقَ الشكلُ الآخر من دعوتها!! كانت تريدُ أن تزفّهُ عريساً و تنشرَ الأغاريد في عرسهِ لا أن تزفّهُ شهيداً بنغماتِ بكائها!
لقد رحلَ شهيداً، لقد كانت أمّهُ راضيةً عنه!
الجنّةُ تحتَ أقدامِ الأمهات و لكن كانَ لهُ جنتين، الأولى بسبب رضى أمّهِ عليه و الثانية تكمنُ في أرضِ سوريا.
أوَ ليست سوريا جنّة؟ نعم، لقد باتَ الآن ملاكاً في تلكَ الجنة!
أوَ ليسَ الله تعالى بباعثٍ ملائكتهُ لتحرسنا؟ لقد باتَ جيشُ الملائكةِ السوري يعادلُ الملايين .. لقد اقتربَ موعدُ السلام!

عن ملاكٍ آخرَ نتحدث، قبلَ أن يذهب طبعَ على جبينِ أمّهِ قبلة، على يديها قبلات و على خدّيها قبلاتٌ و دموع.
عندما نفارقُ الأحبة، لا نفارقُ أجسادهم، رائحتهم أو حتى قربهم.

بفراقهم تفارقنا عوالمُ في أرواحنا!
أجمل ما قد يحدث للمرءِ هو أن يجدَ روحهُ في جسدٍ آخر، و إن استبدلنا "أجمل" بـ "الأكثر ألماً" لكانت العبارة واقعاً أيضاً!
سيتجرّعُ أملاّ لحينِ لقياها مرةً أخرى. سيتناسى صوتَ البارود و الرصاص بذكرِ "الله يرضى عليك" من شفتيها. سيتناسى

القنابل التي تريدُ أن تحضنهُ بذكرِ حضنها. لن يجعلَ رصاصةً ما تقبّل قلبه فهوَ يريدُ تقبيلَ يدي أمّهِ مرةً أخرى!
من كثرِ ما يحبّها لم يكن يرى أعوامهُ في الدنيا تكفي للتعبيرِ عن حبّه. لم تكن تكفي ليردَّ لها جزءاً من جميلِ عطائها!
قالَ تعالى: „ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهَّ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُّ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ„
كانت قد بكت على استشهاده، و لكن لا يحقُّ لها أن تحزن!
قد قالها تعالى: "و لا هم يحزنون". لا خوفَ عليكِ و لا خوفَ لديهِ الآن!
ستكونُ شهادتهُ سبيلَ لقائها في الجنّة و عندها سيضمنُ حياةً أبدية

يعبّرُ بها عن حبّه أكثر و يشكرها على عظيمِ عطائها أكثر!
عندما ذكرتِ لي ذلكَ يا شوق اغرورقت عيناي فيما بعد بدموعٍ لم أبكيها،
و فيما قبل كانت التي بكيتها قد أغرقتني كلّي!
أيتها الفرحةُ المصحوبةُ بسلام ..
كاللحظةِ التي حرّرنا بها القدسُ أنتِ، بعيدة، صعبة و لربما ستبقينَ حلماً!

سألتكِ يوماً يا شوق ..
كيف حالكِ؟ و كيف حال .. و .. و .. و الآخرين؟
أجبتِ: أتقصدينَ هل ما زلنا على قيدِ الحياة؟!

لقد باتت اتصالاتنا لنطمئنّ على الأحبةِ في الوطن في ما إذا كانوا
لا يزالونَ أحياء و أمّا بعدَ ذلك فلتنقلِ الهواتف ما شاءت من
أوجاع!
هذا هو سؤالي الأول لكِ يا شوق في كلّ مكالمةٍ نجريها ..
و جوابكِ يبدأ، و يبدأ قلبي بالانكماش مع كلِّ اسمٍ تذكرينه.
مع كلِّ اسمٍ تذكرينهُ يتوقّفُ الدمُ في قلبي و عندما تنتهين بأنهُ
لا يزالُ على قيدِ الحياة تعصرُ الشراييُن الدمَ من جديد إعلاناً لسلامةِ

الشخص و تهيئةً للانكماشِ من جديد!

أقولُ لكِ مرحباً و أشعرُ بأنني كتلةٌ يعتريها إحساسٌ ما و لكن لم يحدث لي أن عرفتُ لهُ اسماً في حياتي!

لربما كانَ ذلك لصعوبةِ أن تصفيه فهوَ أنهارٌ من الأحاسيس تصبُّ في إحساسٍ واحد.

- كيفَ حالكِ يا شوق؟
- و كأنكِ لا تعرفين الإجابة، لا زلتُ أعاني!

ليسَ غباءً مني أن أسألكِ هذا السؤال دائماً و لكنّ سؤالي تتبعهُ أمنية أن تقولي بدأتُ أتحسّن!

آآآه يا شوق كم أتمنى لو أنّ تحسنكِ يحدث! لو أنني أستشعرُ بصيصَ أملٍ منه لكنتُ شحذتُ حصولهُ، لكنتُ عندها أحرزتُ تقدماً خلالَ سبعِ سنواتِ حربٍ تعانينها!

نكمل:

- أخبريني كيفَ حالُ أحبائي و أبناءُ الوطن؟
- بخير ما دمنا أحياء، و لكن يا للمسكينةِ أمّ سلمان .. لو تدرينَ ما حصلَ لابنها!

- أتمنى أن يكونَ خيراً، و لكن أن تستفتحي سؤالكِ بيا للمسكينة و يتلوهُ لو تدرين .. فهنا لا موضع للشكِ بسوءِ ما حصل، أخبريني ما به؟
- لقد كانَ يلعبُ الغميضة مع غيرهِ منَ الأطفال. كانَ عليهِ أن يختبئ كي لا يعثرَ الأولادُ عليه كي يربحَ في اللعبة ..
- آه، أكملي .. أعرفُ أصولَ اللعبة .. أوَ نسيتِ أنني تربيتُ في زقاقٍ دمشقيّ؟
- لقد ركضَ ليختبئ بينَ شجيراتِ الحارةِ المجاورة. لقد اختبأ يا ريم!
لقد اختبأت روحهُ للأبد، عثرَ أهلهُ عليهِ غارقاً في دمه!
لقد ربحَ اللعبة، لم يعثر عليهِ الأولاد. نصرهُ توّجَهُ، لن يلعبَ معهم بعدَ الآن، إنهُ يلعبُ مع ملائكةِ السماء!
حاولتُ ألا أبكي، حاولتُ أن أتماسك لكنّ قوايَ خانتني!
- أهاتفكِ غداً يا شوق، عليّ الذهاب!
لقد تركتكِ تحادثينَ ذكرياتكِ بدلاً عنّي على خطِّ الألم و رحتُ أنا أبكي

و أناجي ربّي براءةَ الطفولة و سلامَ سوريا.

بكيتُ إلى حينِ غفت عيناي و لا زالَ قلبي ينطقُ دعاءً.

أدعو لها بالسلامِ حبيبتي سوريا في صحوتي و في غفوتي و في ما بينهما أؤمنُ بقدرةِ ربّي أنا!

استيقظتُ في الصباحِ التالي على صوتِ أمّي: „ لا إله إلاّ الله، شب بعمر الوردة، ما صرلو شهر و شوي متزوج .. و الله تعبنا من هالحرب الظالمة، مالها عم ترحم حدا! „

راحَ عقلي دونَ إذنٍ مني يتصوّرُ عمّن أمي تتحدث. نسيتُ من ذهلي أن أبتدأ صباحي بكلمة "صباح الخير" لأمي!

سألتها: „ خير شو صاير، عن مين عم تحكي؟ „

لقد كانَ الشابُ أخاً لصديقتي المقربة و زوجاً لرفيقتي الأخرى. هاتفتها حالاً و راحت أوجاعها تحلّقُ من فمها عبرَ فضاءِ السمّاعة لتحطَّ على أذني و من ثمَّ تمرّ بقلبي، تأخذُ تصريحَ إقامةٍ من بوابةِ الأحزان و تستقرُّ في أرضها.

لقد سألتهُ و هي تودّعه: هل تحبني؟، طبعَ قُبلةً على خدّها و أجابها: أحبكِ بقدرِ ما ستشتاقينني!! أحبكِ بقدرِ المسافات التي ستفصلنا في مهمتي العسكريةِ هذه.

لم يكن منَ الضروري أن يجعلَ اشتياقها أبدياً ليبرهنَ لها أبديةَ حبّه، فوالله مهما خطا على الأرضِ من مسافات فلن تتجاوزَ خطواتهُ تامورَ قلبها!

تخبرني لو أنها كانت تحملُ قطعةَ لحمٍ منهُ في أحشائها لكانت فاجعةُ الموتِ لتهونَ عليها، يمكنها أن تضمَّ ابنهما كلما ذكرته، و أشكّ أنها لن تفلتهُ من يديها بتاتاً فهي لن يحصلَ لها أن تنسى حبيبَ روحها و مفتاحَ سعادتها لشهرٍ و ثمانيةِ أيام. لقد رحلَ المفتاح .. رحلَ و لن يعود، لم يكن ذلكَ بمشيئتهِ و لا بإرادتها، لقد كانت مشيئةَ الله لكن ألمها هي! لقد أحكمت القفلَ على قلبها بعدَ وفاته، لم يعد أمرٌ ليجعلَ منها سعيدة، لقد بهتت بهجتها كشجرةٍ حملت الدنيا الفرحةَ إليها في الربيع و لكن تعرّت من سعادتها خريفاً. و لكن بئساً لذلكَ الربيع لو أنّهُ طالَ أكثرَ من شهر!

لو أنها ملكت ابناً منه لكانت ذكرتهُ في عينيه، لكانت قبّلتهُ كلما ذكرت أيامهما معاً. و لكن هل يزيدها ذلكَ عدا اللوعة؟!

ما يحيّرني أنهُ كيفَ لكلمةِ حرب أن تسرقَ أولها و آخرها من الحب و ألّا تنعمَ بما سرقت؟!

قبيلَ الحرب كانَ الحبُّ يغمرنا، أمّا الآن فالأنانيةُ تُغرقنا. و لكن هل من

سبيلٍ للحب مرةً أخرى حسبَ قانونِ الحرب؟!

إن لم تمحي الحبَّ فينا فقد شوّهتهُ للأبد!

كيفَ لنا أن نعلنَ ثورةَ الحب من جديد بعد الحرب و نحنُ بلا روحٍ لتعشق و بلا قلبٍ ليستلذّ بما تشتهيهِ الروح؟

هذه هي مأساتنا نحنُ مَن نعيشُ الحرب ..

قذائفُ الموت نالت مِنَ الشعبِ في الوطن ..

و قذائفُ الاشتياق نالت من الشعبِ في الغربة!

و لكن هل سمعتم يوماً بكفاحٍ يُخاضُ لرخيص؟

لو لم تكن سوريتي غالية لما فَنوا سبعَ سنين مع أسلحتهم للحصولِ عليها! .. لقد قالها أحدهم:

„ بنصفِ قلبٍ نحب فالنصفُ الآخر مشغولٌ بأمورِ البلد „

ماذا عن الذينَ يخسرونَ نصفَ القلبِ الأول بموتِ أطفالهم، آبائهم و أزواجهم؟

هل أهوّنُ عليهم بأنّ النصفَ الآخر لن يموت؟!

و مَن أنا حتّى أهوّنَ عليهم بتلكَ الكلمات إذا كنتُ أنا بنفسي أريدُ أن

يربّتَ أحدهم على كتفي بذلك؟!

خسارةُ فردٍ ليست بخسارةِ واحدٍ من ملايين!

عندما تقتلُ فرداً فاعلم أنكَ تقتلُ أباً لأطفالٍ موجودين أو لأطفالٍ لم يولدوا بعد، اعلم أنكَ تقتلُ زوجاً أو عريساً منتظر، فكّر بأنكَ تقتلُ لأمٍ نبضها و لأبٍ ما كانَ يرتكزُ عليهِ في حياته!

عندما تقتلُ فرداً تذكّر أنكَ تشرّدُ عائلات، و عائلاتٌ تليها عائلات تعني مجتمع!

كيفَ لهم أن يقتلوا باسمِ الوطن و هم يسقطونَ دعائمهُ؟

يحاربونَ على حدّ تعبيرهم من أجلِ الوطن و لكن يقتلونَ شعبهُ، و أيُّ

وطنٍ ذلكَ بدونِ شعب، بل إنّما ما هوَ الوطنُ إلاّ شعباً؟

سألني يوماً أحدهم: هل أنتِ من العراق؟

أجبتُ: لا، من سوريا.

ردّ قائلاً: ووو .. كم من جماعةٍ نشأت لديكم، يا للحرب كم دمّرت عندكم! .. مساكينُ أنتم يا سوريون.

قالها و ليسَ بنوعٍ منَ الأسى أو الحزن لمعاناةِ شعب، لم يحدث أن بدت

تعابيرُ الأسفِ على وجهه، بل إنما الاستهزاء!
مَن قالَ لكَ يا هذا أنّ بلدي أرادت الحرب؟ و مَن قالَ لكَ أنها راضيةٌ بالقذائفِ التي تفجّرُ أوصالها؟
مَن قالَ لكَ أنّ أمي سوريا لا تموتُ ألفَ مرةٍ يومياً على فقدانِ أبنائها؟
مَن قالَ لكَ أنّ سوريتي لا تتألمُ لتقسيمِ أرضٍ و شعبٍ و اسم؟!
عيبنا الأكبر هوَ أننا نركضُ خلفَ ظاهرِ الأمور، دوماً ما نُخدع و يكونُ ذهولنا الأكبر عندَ ظهورِ الواقع الذي كانَ مستتراً تقديرهُ خلفَ قناعِ النفاق و الذي باتَ مبنياً على عقولِ الأغبياء!
غالبنا يخوضُ معَ الخائضين دونَ تفكير، يهتفونَ فيهتف، يصفّقونَ فيصفّق، يصرخونَ فيصرخ، و لكن ما مِن فعلٍ إراديّ يحكمه.
أَ لَم يحِن لهؤلاء أن يزيحوا عن عقولهم الغبار أم أقصدُ الركامَ الذي

يمنعها منَ التفكير أو تنفسِ لذيذِ النعمةِ التي أنعمها الله علينا؟
مثلهُ كمثلِ الذي يسمعُ كلاماً لمجرّدِ كونهِ يجبُ أن يسمعه، لكنّ عقلهُ يتأرجحُ في مكانٍ بعيد، فجأةً يسمعُ البعضَ يضحكون فيضحكُ معهم و لكن على ماذا؟ هذا ما سنعرفهُ في حالِ رمينا عقولنا أسيرةَ

الغفلة و فصلناها عنِ الواجبِ الذي وكّلها الله تعالى أن تؤدّيه!

استفيقوا من غفلتكم!

إنّ في الخفاءِ ما هوَ أكثرُ هولاً!!

حكّموا عقولكم!

يؤسفني شخصٌ يتفاخرُ برجولةٍ ليس مالكها و يقول: أنا لا أسمحُ لأحدٍ أن يتحكّمَ فيني.

كفاكَ نفاقاً يا أنت!

اعذرني يا أنت فلستَ تتّسمُ بما يجعلكَ رجلاً لأناديكَ بذلكَ الاسم، كما هي الإنسانيةُ قد رمت بكَ من عذبِ نسماتها.

فلتبقى يا أنت مجردَ أنت، و لكن "أنت" ضميرُ رفعٍ في العربيّة، و هل لديكَ من الضميرِ إلاّ فتاته و هيهاتَ إذما كنتَ تملكها!

أينَ أنتَ من مخططاتٍ تُرسمُ لكَ و لشعبك؟

أوَ ليسَ هذا دهساً لرجولتك؟

ممحاةً لإنسانيتك؟

أكبر ظالمٍ متحكّمٍ بك؟

يبرّئُ نفسهُ فيقول: أوَ لستم ترونَ غيري؟

كفاكَ استهزاءً بنفسكَ أرجوك!!

عندما تبدأ بكَ و باثنينِ معك تنتهي بتوابعَ لا متناهية مستقرُّ

أفكارها الخراب و منطلقها الشجعُ و الغباء!

كلامي لكلّ مَن ينتمي إلى مجموعة صم عمى و لكن مع نباحٍ على

مَن يملكونَ الحق، و ذليلي النفس أمامَ من يهابونهم. و كلّ مَن يهابُ

أحداً فليعلم أنّ أحداً ذاكَ يهابُ أحدهم أيضاً.

إذا سُرقَ من منزلهِ بعضُ الأوراقِ التي عليها صكّ عملة تراهُ يُجَن و ما

مِن مهدّئ له .. يريدُ أن ينتقمَ و يقتل و تعي من تصرفاته أنّ ما يسكنُ

جسدهُ وحشاً و ليس روحاً للأسف!

هل ما تنامهُ نومَ أهلِ الكهفِ أم نومَ أهلِ الحربِ يا أنت؟

إنّ بلادكَ تُسرقُ منك و من أهلك .. إذا ذهبَ الوطن فليخطّ الدهرُ ما شاء!

لا تجعلِ الغفلةَ تضعكَ أسيرَ الشيطان، و لكن هيهاتَ لو تكن تلكَ غفلة!

إنها غيبوبةٌ سريرها الجهل و زوّارها الطامعون و عقلكَ الوحيد هو الذي

غائبٌ عنِ الوعي كما لو كنتَ مشلولَ العقلِ فقط، أو ربّما عقلكَ يعمل

لكنّ أنسجتهُ التي توجّهكَ للصواب هي التي قد توقّفت عن العمل!!

مدرستي منذُ سنتين ..

بيتي اليوم ..

و لربما قبري بعدَ يومين!!

هاتي ما عندكِ من أخبارٍ يا شوق، كيفَ حالُ الأطفال؟، سألتكِ يومها.

أجبتِ: لو أنني أُعطي لكلِّ طفلٍ دقيقةً للتحدّثِ عنهَ و عمّا يمرُّ به لَمَا انتهيتُ لبعدِ سنوات! و الله يا ريم، لو أكتبُ عن مأساةِ كلِّ طفلٍ دهراً لَمَا أوفتهُ حقّه كلماتي.

علّقتُ عندها: معكِ حق، و لكن كيفَ هيَ أخبارهم بشكلٍ عام؟!

أجبتِ و قد رُسمت حيرةُ البدءِ بالإجابةِ على صوتك:

آآه تقطّعُ قلبي على مَن هم تحتَ الأرض و لكن هنيئاً لأرواحهم بالجنة ..

و آهاتٍ تقطّعني على مَن هم يعيشونَ الألم و البكاء ..

و دمعةٌ و نظرةُ أمل للذينَ يولدونَ اليوم في مهدِ الحرب على أملِ أن يرضعوا السلام!

أتعلمينَ يا شوق ..

لقد باتَ للحربِ سبعُ سنين!

تعالي نعيشُ الخيال، تخيّلي لو أنّ الحربَ أنثى تحملُ الفرحةَ في أحشائها في مكانٍ ما و قد انتظرت سبعَ سنين و لم يتبقَ سوى سنتين و بعدها تضعُ مولودها ..

و لكن أَ لَم يكفيها هذي الحرب مخاضاً على شكلِ قذائفَ تؤلمُ الجميعَ إلاّ نفسها؟!
يا لـها الحربُ من ظالمة ..

تبتاعُ أرضنا و تدمّرُ بيوتنا، تقتلُ أمهاتنا و تشرّد أطفالنا مقابلَ قبرٍ يحملُ اسمَ شهيد! و الأكثرُ أسى من ذلك أنّ كلّ مَن حملَ بندقيةً و قاتلَ و قُتِل يسمّى شهيداً!
عارٌ على أولئكَ الذينَ يقتلونَ أبرياءَ باسمِ الوطن ..
و عارٌ على مَن يحملونَ بندقياتهم لتخويفِ عائلة و سرقةِ ممتلكاتها ..
عارٌ على مَن يجرّدونَ من البندقيةِ رجولةً لهم، يتباهونَ بها و في الواقع ما هيَ إلا عارٌ و عار و كبيرُ عار!
أيّ رجولةٍ تلكَ التي تجعلُ أحدهم يخطفُ ابنةَ عائلة، يغتصبها، يخلّفها قتيلةً برصاصة بعدَ انتهائه من عملهِ الدنيء أو قتيلةً بعدما يتشارك جسدها و شرفها مع زملائهِ الأنذالِ أمثاله، أو ربما يودي به دنيء تفكيره لأن يمارسَ شهوتهُ عدّةَ مرات فيخلّفَ من تلكَ الفتاة قتيلةَ ألمٍ سبّبتهُ الولادة وحدها في أحدِ أركانِ القبوِ المعتم!

أَ هل كلّ مَن كان قد حملَ بندقيةً يحملُ اسمَ شهيد؟ .. إنني
أدنّسُ مئاتِ الشهداء عمّا فعلوا إذاً!
أَ كلّ مَن باعَ وطنهُ شهيداً؟
أَ كلّ مَن أودى بحياةِ شعبِ الوطن شهيداً؟
بل أَ كلّ مَن تمنّى أن تطولَ الحرب كي يطولَ الثراءُ شهيداً؟
عارٌ على مَن يسمّونه شهيداً و قد كانَ يقتحمُ المنازل ليقتلَ

أبناءَ شعبه ..
عارٌ على مَن كان قد حملَ بندقيةً ليكتسبَ شهوةً أم مالاً أم سلطة!
قد قالها تعالى في كتابهِ الكريم:
„وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهَّ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ
عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ„
أمّا مَن قُتلوا في سبيلِ الله فهم في جنّاتِ الخلدِ أحياء، و هذا
لا يمكننا أن نراه. و لكنّ كلمةَ أحياء في تلكَ الآية تعني أنهم
أحياءُ في أحاديثنا عندما نمجّدهم، أحياءٌ في ذكراهم الطيبة عندنا ..
و لا أعتقدُ بأنّ كل مَن ماتَ يحملُ بندقيةً هو حيٌّ في قلوبنا،
فالبعضُ منهم لربما كانوا من أولئكَ الذينَ دعَوْنا عليهم بالموت

على ما ألحقوا في الوطنِ من أذى!

على جدرانِ المدرسةِ الممزقةِ أعماقها بالرصاص و المتفجّر كيانها بقنبلةٍ أو أكثر كانَ يُكتب „المدرسة هي بيتي الثاني „. لقد أتت الحرب لتجعلَ البعضَ منّا يعيشُ هذهِ العبارة. فكم من عائلةٍ مهجرةٍ متألمة محرومة باتَ مأواها أن تشتركَ غرفةَ الصف مع عائلاتٍ أخرى؟
و في تلكَ الغرفة قبلَ أن تعانقَ وسادةٌ وجنةَ فتاة، و قبلَ أن

يغطّي جسدها غطاءٌ مهترئ معتذراً عن عجزهِ بتدفئتها، تخبرها أمّها: „أحلامٌ سعيدةٌ يا ابنتي!„.
لا تدعي لها يا خالة بأن تكونَ أحلامها سعيدة، بل ادعي لها بواقعٍ يحملُ الطمأنينةَ و الأمان!
بكلامكِ هذا تزيدينها تعلقاً بأحلامها و كأنّ دعاءكِ بسعادةِ الواقع لن يكونَ واقعاً!
و مَن قالَ أنّ أحلامنا تنقصها السعادة؟
أحلامنا و لو طغت عليها قباحةُ الواقع ستبقى هيَ جميلةً و سعيدة، فأن يخيفكَ واقعكَ و يلحقَ بكَ ليزعجك حتّى في

منامك، ما هوَ إلاّ كابوسٌ عندها و ليسَ حلم!
مساكينٌ هم مَن يزرعونَ في الحربِ شتلةَ حب، أوَ نسوا أنّ الحربَ لم ترحم الجذورَ في القلبِ حتّى؟!
كنّا ننعمُ بسوريا الملائكية و بسلامها الأبدي، لربما كانَ خطأنا أن نذكرَ اسمَ الأبد دونَ إذنٍ منه! فنحنُ لا نعلمُ متى حلّ علينا و لم نكن نعلم متى سيلملمُ أغراضهُ و يرحل عنّا ..
كلّ ذلك كانَ لأننا لم ندرك أنّ الأبد ما هوَ إلاّ طفلُ الحلم و عدوّ الواقع!
قبيلَ أن تنامَ تلكَ العائلة تذكرُ ما حلّ بها و ما قد يحل، تتنهدُ الأم و تقول: „ لو أنّ الحربَ تنتهي غداً .. لو أننا نعودُ لبيوتنا و أرزاقنا ..

لو أنّ .. و لو أنّ .. „
ماذا عن "لو أنّ" تلك؟
إنها لأكثرُ العباراتِ تجوالاً بينَ القلبِ و العقلِ و النفس!
متى سنصلُ لحقيقةِ أنّ الخمسةَ أحرف تلكَ التي تمنحنا الأمل هي ذاتها التي تجعلنا نزدادُ ارتطاماً بواقعنا؟ .. هي التي جعلت من نفوسنا هشّة، من بسيطِ الأمورِ تتكسر!

آه لو أنّ سوريتي المسالمة تزورني حلماً، و الله إنني لأقبل ..
لكنّ رجائي أن تطيلَ الزيارة حتّى و لو أصبحَ حلمي غيبوبة!
أحلاماً سعيدةً لكِ أيتها الفتاةُ المسكينة، و واقعٌ جميل لكِ و لي
و للشعبِ السوريّ أجمع!

تسألينني يا شوق أَ أشتاقها سوريتي، فأجيبُ و هل لي غيرُ الشوقِ
أليف؟
أن تشتاقي يعني أن تتفجّر مشاعرٌ من أعماقِ قلبك، و لكن ماذا لو
كانَ قلبكِ هوَ سوريا؟
ستتفجّرُ تلكَ المشاعر فيهتزُّ قلبكِ و تهتزُّ سوريا، لذلكَ لا ترتعبي يا
شوق عندما تهتزُّ بكم الأرض، فأنتم مواطنونَ في قلبي و مع كلّ

خفقةِ قلب و نبضةِ مشاعر آنَ لكم أن تهتزوا معه!
و أزيدكِ من عمقِ شوقي تنهيدة فتقولين: بئساً لتلكَ الحرب
التي عكّرت صفوَ ضحكتكِ .. دعينا نتحدّثُ عن شيءٍ آخر!
و هل تقطنُ ذكرى الحرب إلاّ في كلّ جزءٍ منّا و في كلّ حديثٍ
لنا؟ فلا حديثَ نتجاذبُ أطرافهُ إلاّ و كانت الحربُ صمّامَ آلامه.

أَتعرفينَ يا شوق ..

ضحكتي ليست غائبةً باسمِ الحرب بل باسمِ الحيرة!

إنني أعيشُ صراعَ الفرحة ..

أَ هل أحترمُ موتانا و أعاني لفقدانهم، أم أضحكُ كرامةً لأحيائنا كي لا نموتَ على قيدِ الحياة؟!

أَ تسقطُ على شفاهي ابتسامة في حينِ تسقطُ مئاتُ الجثث على أرضِ وطني؟!

أَ أفتحُ فمي بضحكةٍ لأعيشَ الفرحة، و السلامُ ما هوَ بفاتحٍ ذراعيهِ ليعانقَ بلادي؟!

مسكينةٌ أنتِ يا بلادي، لا تعانقينَ إلاّ جثامينَ أبنائك!

يقاتلونَ شعبكِ لسنوات و يخلّفونَ آلافَ الشهداء و من ثمّ يقتلونني حناناً في وقوفهم دقيقةَ صمتٍ احتراماً لأرواحِ شهدائك بمقبرةٍ من قبورهم ..

و هل لمنافقٍ لم يحترم الروح أن يحترمَ الجسد؟!

شبعنا نفاقاً و موتاً ..

لقد نالت صنارةُ الحربِ منَ الجميع ..

لقد خلّفت منّا موتى على يابسةِ الوطن و في بحارِ العالم ..
هذي الحربُ لم تكتفي بموتى جسد و بل طمعاً أرادت موتى روح و موتى أحلام و لربما موتى أمل!
صحيحٌ سوريتي لم يمضِ على غربتي شهور و لكن يعزُّ عليّ أنني أراني لستُ أراكِ سوى رؤيةِ وطنٍ موجوعٍ حتى في رؤى حلم!!
لستُ ميتةَ جسد، بل ربما ميتةً بالنسبةِ لروحٍ نقاؤها كانت تضبطهُ على موعدِ تفتُّحِ الياسمين!
لستُ ميتةَ أمل، و لكنّ الأملَ عندي يلتقطُ أنفاسهُ المتبقية و بئساً لما يتنفسهُ ليسَ إلاّ ألماً متحداً مع ثنائي فاجعة!
يقولونَ عندما تحلُّ بكَ فاجعة: „الوقعة اللي ما بتموتك بتقويك„.
لقد وقعت سوريا في مستنقعِ الحرب، و اعتذاري سابقٌ للجملةِ التي سبقت فيعزُّ عليّ أن أضعَ فخامةَ سوريا في مكانٍ كهذا و لو في سبيلِ اللغة!
و أمّا في تلكَ الوقعة ما كبرَ و باتَ أقوى و أشد فهوَ ألمنا و أمّا ما ماتَ فهو قلوبٍ كثيرة و نفسياتٌ أكثر.
لم يعد الجميعُ كما نعرفهم!
كما لو أنّ رمادَ الحربِ شوّهَ أرواحهم ..

كما لو أنّ دخانَ القنابلِ أخفى طيبتهم ..
كما لو أنّ الصواريخ فجّرت ما كانَ بهم من عواطف ..
كما لو أنّ الأرضَ هزّت معها ما كانَ عندهم من مبادئ!
لقد تغيّرَ الجميعُ يا شوق، أرجوكِ لا تزيديني فاجعةً بنفسك!
لا أريدُ يوماً أن أسمعَ بأنكِ أصبحتِ غيرَ أنتِ ..
أريدكِ أن تبقي قوية ..
لا تجعلي شيئاً يدمّرُ كيانكِ المتصدع!
أَ منَ المعقول يا شوق أنّ ما يتغيّرُ فينا و ما يتغيّرُ حولنا هو من صنعِ أنفسنا؟
لقد أتقنا قول "تقبر قلبي" حتّى أتقنت الحرب فعلَ قولنا واقعاً!
أراهنكِ يا شوق بأنّ قلوباً كثيرةً من قلوبِ الشعبِ السوري باتَ مأواها التراب، هناكَ في تلكَ البقعةِ الترابيةِ الباردة التي تحملُ فوقها شواهد خُطّ عليها أسماء، ستفتتُ الأرضُ عظامهم و شراينهم كما فتّتت الحربُ أرواحهم! لن يحتاجوا بعدَ الآن أن يشتاقوا سقفاً أو أن يرحلوا لغربةٍ أو مخيم أو أن يسلّموا أرواحهم للبحرِ قاضياً بنجاتهم أم بغرقهم .. هم يقطنونَ الآن أجساداً متصدعة أكثرَ منَ الوطن في مكانٍ

هم مالكوه، أو هم يقطنونَ بقايا جسد ..
و يا أسفي فالبعضُ منهم شواهد بلا جسد و بلا أجزاء و بلا أشلاء فقد تعذّرَ إيجادها لفاجعةِ ما حلّ بهم!

عندما تريدُ أن تقتلَ وطناً ستقومُ باعتقالِ تاريخه و تركهِ على مرأى من تخطيطكَ يموتُ موتاً بطيئاً نتيجةَ جوعهِ لإنجازاتِ الحاضر و تعطّشهِ لمن يذكرونَ أن يحافظوا عليه. و مَن سيذكرُ المحافظةَ عليه في حالِ كانَ الناس مشغولين بالحفاظِ على الحاضرِ الضائع و المستقبلِ المجهول؟
ستقومُ أيضاً بافتعالِ شللٍ نصفي للأخلاق و شللٍ كاملٍ للعلمِ و الثقافة.
فالحربُ كانت لتنتهي .. لا .. بل الحربُ لم نكن لنعرفَ لها اسماً لو أنّ العقولَ التي تسكنُ الأرض كلها تعملُ حسبَ آلةِ التفكير باستخدامِ مزوّدِ المنطق لإنتاجِ الصواب.
فمنذُ الأزل كانَ البشر يتحاربونَ أفراداً للحصولِ على الطعام، لو أنّهم استخدموا عقولهم لكانوا أوجدوا مبدأ الاكتفاء و اقتسامِ الأرضِ بما رحبت من خيرات.
حتّى على زمنِ الأنبياء، لم تكن لتوجدَ غزواتٌ و معارك لو أنّ القومَ الكافرين حكّموا عقولهم لإيجادِ الغايةِ من الخلق و لِمَ يجبُ أن يعمّ الخير.

و ها هوَ حالنا الآن، نحاربُ بلا غايةٍ وبلا هدفٍ و لا منطلقَ
لدينا، نحنُ نحاربُ ما بينَ البدايةِ و النهاية، لم نخطّط للحرب بل إنّما
خُطّطَ لنا كي نخوضها و لا نعلمُ كيفَ السبيل إلى النهاية!
و لكن باعتقادي ما مِن نهاية! ..
نحنُ الآن كمن يجلسُ في غرفةٍ عاتمةٍ عازلةٍ للصوت، ما مِن أحدٍ
ليشاركهُ مآسيه، أوجدَ من روحهِ نفساً ليحاربها فماتَ هناك

بسيفِ الوهمِ و القلق!
ألم يكن مدبّرٌ لهُ ليكونَ هناك؟
ألم يكن مخطّطٌ لقتله؟
ماتَ بلا أصوات، و هي حالنا نموت و آخرَ ما نسمعهُ صوتَ الرصاصةِ
أو القنبلة التي سترسلُ أرواحنا للسماء، و لكنّ الصوتَ المكتوم فهوَ
صوتُ الحق أو ربما صوتُ العقل و لربما صوتيهما معاً!
نحنُ نعيشُ ظلمةَ قلوبنا و عتمةَ الطريقِ الصحيح ..
لقد جعلونا نعيشُ الحرب على وهمِ أنّ هناكَ وراءَ الحربِ نصرٌ لنا ..
نصرُ مَن و نصرُ ماذا؟
أَ يكمنُ النصرُ في أن يجعلوا منّا وحوشاً تقتلُ و أناساً تهرب؟

أَ يكمنُ النصرُ في أن يجعلونا أعداءَ بعضنا و في الواقع أعداؤنا
سالمو الصحةِ و الأفراد و نظيفو الأيدي؟
نقاتلُ شعبنا تحتَ طائلةِ الحرب للوصولِ للنصر ..
أوَ لم نكن نعيشُ السلام، الأمان، العلم و المحبة؟!
أوَ النصرُ لا يأتي إلا بعدَ أغاريدِ المدافع و تصفيقِ الرصاص
حتّى نشعرَ به؟!
إنّنا نقاتلُ من أجلِ ذلكَ النصر، من أجلِ أن تنتصرَ الكلمة،
فكيفَ لكلمةِ النصر أن توجدَ أو أن تصبحَ غايةً لولا خوضُ حروب؟!
و لكن هل يستحقُّ بناءُ كلمة أن نموتَ من أجله؟!

إنّنا نلقي بأرواحنا لتنتصرَ الكلمة، لِمَ لا تلقي هي بأحرفها
حتّى ننتصرَ نحنُ؟!
ما رحلَ لن يعود، و مَن ماتَ لن ينهض، و ما أعتمَ في حياتنا
لن تنيرهُ كلمة!
عندما ستنتهي الحرب ستنزفُ أفواهُ الأموات أغاريد و ستطلقُ
أعينهنّ دموعاً إعلاناً للحربِ الداخلية، هنّ يعملنَ أنّ فداءَ النصرِ
استشهدَ شبابهم و لكن عندما جاءَ النصر لم يحضر معهُ أولئكَ الشباب!

ما متعةُ نصرٍ فداءهُ قد قُتِلَ الأحبة؟!

استيقظَ باكراً كعادته، أوَ كأنّ ليلَ الحربِ يجعلهُ ينام!
راحَ يرتشفُ كأسَ الشاي بسرعةٍ عساهُ يلحقُ عملهُ الذي بدونه
يخسرُ حياةَ أولاده. كانَ لا يزالُ يقيمُ و عائلتهُ في غرفةِ الصفِ
تلك التي تحوّلت جدرانها لنعمةٍ تجعلُ منهم دافئين. خرجَ من الباب، و لم
يكد يخرج حتّى صادفهُ جارهُ منَ المنطقة ذاتها التي هاجرَ منها.
أخبرهُ أنّ الهدنةَ قد سرى مفعولها ابتداءً من صباحِ اليوم و حتّى
صباحِ الغد. علت وجهه ابتسامة. الهدنةُ ما هي إلا إيقافٌ مبدئي حتى
يعيدَ الطرفين ترتيبَ أمورهما و تجهيزَ أسلحتهما!

و بذلكَ ما عرفناهُ هدنةً البارحة سيعودُ و يقضي علينا
اليومَ بقوة!
ابتسامتهُ فجّرت بركانَ شوقهِ لمنزله مع أنّهُ يعرف أنّهُ
لا محالةَ لن يستطيعَ العودة للعيشِ فيه و لكن بإمكانهِ إحضار
ما أمكنهُ من حاجاتٍ لا زالت هناك. راحَ ليخبرَ زوجته، طلبت
منهُ أن يحضرَ بعضَ البطانيات عساها تشكّلُ مناعةً ضدَ وحشِ

البرد. توقّفت الفتاةُ عن مضغِ لقمتها عندما سمعت ما تناقلتهُ أفواهُ والديها من كلمات، و علّقت و لم يكن فمها المملوءُ باللقمة و بل امتلأت عيناها ببصيصِ أمل: „بابا معلش تجبلي لعبتي معك، لعبتي اللي تركتها بالبيت، بصير أتسلى معها، حرمتني الحرب يا بابا من مدرستي و من الأمان و الصحة، كمان تحرمني اللعب؟ „

أجابها و يا للمسكين شعرَ بأنّ لهُ ذنبٌ في ذلك: „و لا يهمك حبيبتي، رح جبلك اللعبة، المهم عندي تكوني فرحانة„

ودّعَ الرجلُ زوجتهُ و طفلتهُ و ذهبَ مع جارهِ لقضاءِ يومٍ في بلدتهما لجمعِ الحاجيات و العودةِ بأسرع ما يمكن.

لكن هل عساهُ يكونُ ذلكَ وداعهُ الأخير؟

و كيفَ ذلكَ في أرجوحةِ الهدنة؟!

لقد عاد ..

نعم، لقد عادَ كلامٌ منهُ تنقلهُ شفاهُ جارهِ الذي تلقّى إصابةً

في عضده، لقد عادت منهُ بطانية و دميةَ ابنته.

ينقلُ لهم جارهم الجريح الخبر. الهدنةُ تلعبُ على الأرجوحة، سويعاتٌ

هي في طرفِ الهدوء و سويعاتٌ هي في طرفِ السلامِ المزيّف، لكن سيحينُ لها أن تتوقف وسطَ النيران مرةً أخرى!

ذلكَ السِّلمُ الذي يدفعُ الأرجوحة لم يكن قوياً بما يكفي، أو ربما تناساها في ضجيجِ الزحمة، لم تخدمهُ قواهُ لأكثرَ من ساعات، توقفت الأرجوحة و احترقت الهدنةُ بالنيران و طارَ رمادها مع أشلاءِ البشر المتطايرة بالجو و البيوتِ المتفجرةُ أعماقها!

أمّا ذلكَ الوالد فقد ودّعتهُ الهدنةُ برصاصةِ قنّاصٍ عميقةٍ في صدره، بينما تلقاها جارهُ في عضده. راحت روحهُ تصعدُ إلى بارئها و كلماتهُ تحاولُ جاهدةً الوصولَ إلى مسمعِ الجار قبلَ أن تغادرَ الحروف معانقةً الروح. أخبرهُ أن يوصلَ البطانية التي كانَ يحملها لتدفّئ عائلته، أخبرهُ أنّ روحهُ ستحيطُ بهم دوماً لتدفّئهم أيضاً. طلبَ منهُ أن يسلّمَ الدميةَ لطفلته كي تفرحَ بها.

راحت زوجتهُ تبكي، أيّ دفءٍ تحملهُ لها قطعةَ نسيجٍ إذا ما كانَ قلبها تجمّدَ على موتِ زوجها و شريكِ مأساتها؟!

أخذت الطفلةُ الدميةَ و ضمّتها، لقد كانت هذهِ الدمية آخرَ ما لمسهُ والدها قبلَ موته، بكت و صرخت بأعلى صوتها:

„عد إليّ يا أبي، لا أريدُ دميً .. لا أريدُ ألعاب!

لا وجودَ لشيء إذا ما كنتَ غائباً عني ..

لا لذةَ لما أفعلهُ إذا لم تكن بجانبي و تدفعني إلى رؤيةِ نورٍ

في صميمِ ما تخلّفهُ الحربُ من ظلام!

عد يا أبي!!

أخبرتني أنّ كل ما يشغلكَ هو أن أكونَ سعيدة ..

أيّ سعادةٍ تلكَ تنتظرني و الذي أنطقُ بسعادتي كلّما أنطقُ

باسمه لن أراهُ مرةً أخرى!

أَ معقولٌ أنني لن أقولَ "بابا" بعدَ الآن؟

ما حاجتي لأبجديةِ شفتاي إذا لم تنطق اسمك؟!

عد إلي!

كنتُ أرى في كلّ ما أخذتهُ الحربُ كثيراً و لكن بوجودكَ معي

قليلاً، و الآن بعدما أخذتكَ منّي سأعلنُ أنّها أخذت كلَّ

شيء! „

عارٌ عليها تلكَ الحرب تجعلنا نشتاقُ كثيراً و ما مَن أحدٍ يشتاقها

سوى المنتفعينَ منها!

- لا شيء يجبُ أن يقفَ في وجهِ مستقبلك!
- أنا أعيشُ في سوريا ..
- أعتذرُ منك، لقد نسيت!
- لا عليك، فما من مستقبلٍ لي و إذا كانَ لي

فاعلم أنّهُ ضائع!

لطالما كانَ الفرقُ شاسعاً بينَ أن تحيا و أن تعيش!
كلتاهما من أربعةِ أحرف تلخّصُ العمر و لكن بينَ انتصابِ الأحرف تشهقُ الكلمةُ معناها.
أن تعيش يعني أن تتنفس، تأكل و تشرب، تنام و تصحو، تبكي و تضحك لسببٍ ما عساهُ يكونُ في قاموسِ "أن تحيا" سبباً.
جميعنا نعيش و لكن قليلونَ منّا على قيدِ الحياة.
أن تحيا يعني أن تمتلكَ أهدافاً لتحقيقها، و أن تحقّقها يعني أن تحجزَ في عقلكَ مقعداً للتميز و في قلبكَ جناحاً للرضا.
أن تحيا يعني أن تتنفسَ طمأنينةَ أفعالك و أن تغفو عيناكَ على وسادةِ الإنجاز بعدَ أن قطعتَ مشواراً طويلاً من تسلّقِ سلّمِ الجهدِ و التعب كي تصلَ إلى غرفتكَ و ترتاح.
هناكَ مَن يحبّذونَ الأفعالَ السهلةَ الإنجاز لكونها سهلة، و لكنّها بلا لذة، لم يحيَ قلبكَ على الأمل و لم يستمتع عقلكَ بالتخطيطِ لهدف!
غالبيتنا تستلذُ بالسهلِ المراد سواءً أكانَ عملاً أم هدفاً أم امرأة!
في رأيهم ذلكَ فخرٌ بأنهم أنجزوا الأمورَ بسرعةٍ و سلاسة، و لكن تبقى الأمورُ التي تستولي جهداً و تتطلبُ صبراً هي الأجمل!

ربما ما يجعلُ الأمورَ السهلة أقلّ لمعاناً هي أنها على مائدةِ الجميع و لكنّ مَن يبدؤونَ الأكلَ أولاً هم مَن تكونُ من نصيبهم.
أمّا الذينَ يبحثونَ عن الأمورِ أصعبها ..

أوَ عجزٌ لهم أن يفعلوا ما كانَ سهلاً ليكون؟
أم هو من باب ماذا ذلكَ الذي يفعلونه؟
و في العودةِ إلى ذكرِ الأبواب و ما تخبّئهُ وراءها من أهداف نعودُ لطرقِ باب "أن تحيا" ذاك.
إن كنتَ تسكنُ سوريا أو كنتَ لتزورها اليوم، رجائي منكَ أن تتفقّدَ إذا ما تبقى للحياةِ من أوكسجين!
عندما فاجأتنا الحرب؛ من هولِ المفاجأة أغلقنا بابَ الحياة بدلَ أن نغلقَ الباب في وجهِ الحرب. و عندما تعاركنا على خطئنا ضاعَ مفتاحُ الحياة و ظلّ البابُ مغلقاً، و رحنا نلومُ بعضنا على فعلتنا كمل نفعلُ دائماً. استغلّت الحربُ قضيةَ نزاعنا شعباً و وضعتنا أمامَ خيارين و جعلت من نفسها الملاكَ الذي من سبيلهِ أن يخلّصنا. وضعتنا أمامَ بابين، إمّا أن ندخل بابَ الموت على غيرِ تعديلٍ في القرار و إمّا أن نقبلَ ببابِ العيش كي نعيش مع علمٍ بأنّ الموت قد يرمي من أرزاقهِ

لنا، و بدونِ أن ننسى أنّ مَن يختار بابَ العيش يمكنهُ أن يحظى بفرصةٍ لتعديلِ قراره في ما بعد باختيارِ أحدِ البابين!

عندما تحاورنا في هذا يا شوق انتفضتِ قائلةً:
أَ هذا ما دفعتكِ مغرياتُ الغربةِ لقوله؟
أَ ترينَ ضياعَ المستقبلِ في سوريا أم ترينَ خوفَ الشعبِ منه؟

أيّةُ مغرياتٍ تلكَ التي تحدثتِ عنها يا شوق؟
لستِ معي في غربتي لكنّني أعيشُ يومياً مع اسمكِ شوقاً على شوق!
أَ تعتقدينَ أنّ الغربةَ تنسيني الحارات الدمشقية التي داعبت حصياتها قدماي؟
أَ تمحي الغربةُ من ذاكرتي رائحةَ المطر فوقَ الترابِ الدمشقي؟
أَ تنسني الغربة المأكولات الحلبية بما تضجُّ من ذوقٍ رفيعٍ في النكهات؟
أَ تشطفِ الغربةُ من عقلي نهرَ الفرات الذي يتربعُ في حضنِ الرقة؟

أيّةُ غربةٍ تلكَ التي ستنسيني كلمات أهلِ حمص الرقيقة الدافئة التي
ترشُّ على شفتي سحرَ ابتسامة عندما أسمعُ بها؟
أَ تبعثرُ الغربة عذوبةَ مياهِ البحر على ساحلِ اللاذقية و طرطوس؟
لم أزر محافظاتِ سوريا أكثرها و لكن أعلمُ بأنّ كلّ مترٍ مربعٍ في
سوريا لهُ حقٌّ عليّ بأن أزورهُ لأتبارك ببهجته!
كم أشتاقُ يا شوق للحميدية و الحمرا .. للجامعِ الأموي و الشعلان،
لباب مصلّى و باب توما، السبع بحرات، لطبيعةِ الربوة و الزبداني.
كم أشتهي معروكاً شامياً أو صحن "حلاوة جبن، نابلسية، كنافة أم مدلوقة"
أعرفُ يا شوق أنّهُ حتّى و لو قدّرَ أن تطولَ غربتي فلا شيء
بإمكانهِ أن يبعدني عن حبّ الشام.
بكلامكِ جعلتني أشعر كما لو أنّ حبّي لسوريتي ينقص!
حبّي لسوريا لا يزدادُ كلّ يوم ..

حبّي لها يتضاعفُ كلّ لحظةٍ دهراً ..
حبّي لها يلومُ قلبي لأنّهُ لم يعد يكفيه!
و ماذا أفعلُ لحقلِ عاطفةٍ تزدادُ شحناتُ حبّهِ بسخاء؟
لستُ ألومُ قلبي فهو يثقُ بأنّ الشخص الذي يزوّدهُ بطاقةٍ ليزيدَ

شحناتهُ لن يملّ يوماً و لن يتوقفَ عن شحنهِ بالمزيد.

مستقبلُ سوريا الضائع تريهِ في أطفالٍ تحكي عيونهم جوعَ معداتهم!
بدلَ أن يتعلّمَ أطفالنا مبادئ العد و أسماءَ القارات و الشعراء، تعلّموا
مبادئ الظلم و الحرمان و أسماءَ المدافعِ و القنابل!

أذكرُ أنّهُ في طفولتي كانت أمي تجعلني أسرحُ في عمقِ السماء
لأشعرَ بما أبدعهُ الخالق. كنتُ أرى عصفوراً يطير و غيوماً تحكي
لي قصصاً. كبرتُ و صرتُ أغوصُ في عمقِ النجوم، و حتّى الآن لا
يزالُ منظرُ النجوم هو الذي يسرقني من نفسي و من ثمّ يعيدُ
لنفسي حقيقتها ..
إنّني لأجدُ نفسي في عالمٍ لا متناهٍ منَ الإبداع إذا ما أطلتُ
الإمعان عشرَ دقائق في نجومِ الليل ..
و إنني لأجدُ نفسي أمامَ عالمٍ لا متناهٍ منَ الفخر إذا ما لمحتُ
النجمتين المتربعتين في حضنِ علمِ الوطن!

هكذا كانت طفولتي و هكذا لا زلتُ أجدُ نفسي، فقد تربيتُ على

معاني الاطمئنان و الوقوفِ عاجزةً عن وصفِ كلّ ما أبدعهُ الخالق.
بدلَ أن ينظرَ أطفالنا اليوم لصفاءِ السماء فتصفو أنفسهم، تراهم محاطون من جوانبهم و من فوقهم و من تحتهم بالدخان و معاني الدمار.
بدلَ رؤيةِ العصفور تراهم يرفعونَ رؤوسهم لاستقطابِ طائرةٍ تحلّقُ في سمائهم أو لينامو نومةً أبديةً على مشهدِ قنبلةٍ أصابت أرواحهم!

يغادرُ طالباً جامعياً من منزله، يرى المخاوفَ أمامهُ بدلَ الطريق، و يفكّرُ بفاجعةِ الموت بدلَ التفكير بمحاضراتِ اليوم!
أَ تذكرينَ ما حدثَ بجامعةِ حلب يا شوق؟
كانَ ما فوق المائتي طالب يجلسونَ على مقاعدِ الجامعة. أَ تعلمينَ ما حصل؟ بدلَ أن يتلقوا المعلومة من أستاذهم الجامعي، تلقّوا تفجيراً من أعدائهم.
كانوا هناكَ بغيةَ شهادةٍ جامعية يُفرحونَ بها أهلهم الذينَ يرونَ المستقبلَ فيهم، لكنّهم حصلوا على شهادةٍ ربّانية! أَ ترينَ كيفَ يرحلُ المستقبل؟
لم تخبرهم الحربُ سحقاً لكم إن تميّزتم فقد حلّ السلامُ و الوعي، بل فاجأتهم بتفجيرٍ لهم بما معهم من كتبٍ هدفها الوعي و أرواحٍ

سبيلها السلام!

أخبريني يا شوق ..

عندما ترينَ المئات يذهبونَ إلى المدرسة ..

لا .. لحظة!!

مَن هم هؤلاءِ المئات؟

أَ هم أطفال؟

لقد امتصّت الحربُ دماءَ طفولتهم و تركتهم في عتمةِ الألم كي

تشيخَ ضحكاتهم و تموتَ أحلامهم!

قد قال محمود درويش „قل لي كيفَ تعيشُ حلمك، أقل لكَ مَن تكون!„

لو أنّ روح الرائع محمود درويش تلقاني دقيقةً لأسألها:

إن لم يعد للمرءِ أحلاماً، مَن عساهُ يكون؟

قولي كلمة "حرب"!

أعيدي لفظها، انتبهي لوقعِ أحرفِ الكلمة، تبدئينَ بـ حاءٍ هادئة

كما بدأت الحرب تقنعنا أنها مسالمةٌ أنيقة، تليها راءٌ ساكنة

كعقدِ هدنةٍ معنا بغيةَ سكونِ مطالبنا و سكوتِ كلماتنا، و من ثمّ

يأتيكِ وقعُ الباء، تغوصينَ بعمقِ الكلمة كما غاصت ضحايانا بالدم، تقلبينَ هدوءَ أولِ حرفين بصخبِ الحرفِ الأخير المتفجرِ من أعماقك، كما هي الحرب فجّرت أعماقنا حزناً و أعماقَ الوطنِ دماراً!

لطالما عُرفَ شعرُ الجاهليةِ بأولئكَ الشعراء الذينَ يفتتحونَ قصائدهم بالوقوفِ على الأطلال و ذكرِ الديارِ و المحبوبة. لا عجبَ في ذلك، فعندما تصلُ مشاعرهم لذروتها بسببِ المحبوبة، عندها تأخذُ القصيدةُ أبعادَ عمقها و تراتيلَ جمالها.
لم يكن عصرهم يحملُ اسمهُ بسببِ جهلهم فوالله لو قُدّرَ وزنُ عقولهم و بلاغةُ كلماتهم ذهباً لما أكفاهم ذهبُ الأرض. سمّوا بذلكَ لأنهم كانوا لا يزالون على جهلٍ بدينِ الإسلام، ذلكَ الدينُ الذي يضفي على العقلِ نورهُ و يمسحُ القلبَ بطمأنينته!
و الحمدُ لله، فالبعضُ منّا ليسَ يختلفُ عن أهلِ الجاهليةِ إلاّ بالكثير!
لقد أعزّنا الله ديناً فرحنا نقيمُ الحروبَ على شرفِ اسمه، ماسحينَ عن عقولنا نورها لتلبسَ غبارَ الجهلِ الحقيقي!
و البعضُ منّا راحَ يقفُ على دماءِ الضحايا يبكي و يرثي الأحبة و مظهرُ الدماء و مشاعرُ الألم هي التي تعطي للذاكرة عمقَ جرحها.

و البعضُ لم يعش المشهدَ حقيقةً بل شاهدهُ على تلفازٍ، أو سمعهُ من أحدهم، أو عاشهُ إنسانيةً بداخلهِ ليستشعرَ بمعاناةِ غيره!
بدلَ أن يصوّروا لنا مسلسلاً أو فيلماً يجسّدُ الواقع ليزيدوا من آلامنا فنشعرُ بغيرنا على حدّ تعبيرهم، بدلَ أن يدفعوا مليارات الأموال لنقلِ الواقعِ على شاشات، لِمَ لا يعملونَ على تحسينِ الواقعِ على الأرض؟

بدلَ أن ننشرَ أحاديثَ الناس فينا بيننا، أَ كانَ غيبةً أم نميمة، شماتةً أم حزناً، إحساساً بوجعهم أم تقديراً لوضعهم ..
لِمَ لا نعملُ على نشرِ الوعي الذي من شأنه جعلنا نتحدُّ جميعاً لركلِ الحربِ إلى فضاءِ اللاعودة؟!

عندما أتحدّثُ عن الحربِ معكِ يا شوق تقاطعينني قائلةً:
„أَ تجسّدينَ من الحربِ كائناً يفعلُ ما يريد و يقدّرُ مصيرَ الناسِ

كما يحلو له؟ ما هي الحربُ إلاّ اختبارٌ من عندِ الله!
كفاكِ تشاؤماً يا ريم، ما الحربُ إلاّ قضاءٌ و قدر و ستنتهي يوماً!„
و مَن قالَ لكِ يا شوق أنّني أعدُّ الحربَ آلهةً متحكّمة كما تصفين؟!
أعلمُ أنّ الحربَ ما هي إلاّ اختبارٌ لنا و لكنني أفكّرُ بطريقةٍ تختلفُ عنكِ ربما، و ما الجمالُ فينا إلاّ إذا كنا نختلف؟!
فوالله لستُ أرى سوى بعيني الثالثة التي تحكمُ على غيري بشكلِ تفكيره!
مقصدي يا شوق أنّه ما مِن متحكّمٍ لنهايةِ قضائنا غيرنا نحنُ بإذنٍ منَ الله، فأن نجلسَ بينَ حطامِ الوطن و ننتظرُ فرجاً ما عساهُ الفرجُ ليأتينا!
لطالما تتنفس فبإمكانكَ أن تصنعَ فارقاً!

قد يتطلّبُ تكاتفنا و نشرُ الوعي شهوراً، ربما سنين و لكنّ النتيجةَ هي فرحٌ و سلامٌ قد يدوما عقوداً.
هناكَ فرقٌ بينَ أن تتعبَ و بعدها ترتاح ..
و بينَ أن ترتاحَ لتتعبَ فيما بعد!

أن نتكاتفَ اليوم كي نصلحَ ما أُفسدَ في الوطن يعدّ تعباً، و لكنّ الفرحَ الذي يلي تعبنا يحملُ معهُ سلاماً، أماناً، طمأنينةً و راحة.
و أمّا أن نرتاحَ الآن بحجةِ أنه ليسَ بإمكاننا أن نصنعَ فارقاً و من ثمّ نستيقظُ على ما آلت بهِ نهايتنا اليوم إلى نهايةِ لحظةِ
استيعابنا، فهناكَ يكمنُ التعبُ الحقيقي. كنّا لنصلحَ اليوم ما أُفسدَ في الوطن و لكن عندما نعي ما قد غفلنا عنه فإننا سنقومُ بإصلاحِ كلِّ الوطن، و هذا إذا ما كانَ لا يزالُ يحملُ اسماً واحداً و إذا ما كنّا لا نزالُ تابعينَ له!
هيَ الحالُ نفسها دوماً في مختلفِ الأمثلة، كمل هو طالبٌ اجتهدَ ليرتاحَ بعدَ امتحان و طالبٌ آخر أفاقَ لحظةَ الامتحانِ بعدَ الراحة فكانَ لهُ مقدارٌ عظيمٌ من التعب!
انسَ مقولةَ "سأرتاحُ غداً" في كلّ يومٍ تستيقظُ فيه، إذا لم تصنع راحتكَ بيدكَ اليوم لن يصنعها لكَ أحدٌ غداً و لا حتّى بعدَ غد!
لا تدع الحزنَ يأخذُ مساحاتٍ شاسعة في قلبك في حينِ كنتَ

تتأملُ الغدَ الأجمل.

هناكَ دوماً غد، لي و لكَ و للجميع، قد لا يكون على الأرض،
و قد لا يكونُ الأجمل، لكن هناكَ غد!
أن تعملَ صالحاً اليوم، تصلّي، تصوم، تتصدّق و تصل أرحامك
قد تعتبرهُ تعباً و لكنّ راحتكَ في الجنةِ خالدةً مخلدة.
اختر أنتَ بينَ الراحةِ المخلّدة و بينَ راحةٍ دنيوية قد تدومُ عشراتِ
السنين و لكن يعقبها أبدٌ تعذّبكَ فيهِ نيران!
كما علاقةٌ زوجيةٌ فاشلة، تبدأُ بشتيمةٍ تليها إهانة، تسكتُ
الزوجة على أملِ أنّ غداً سيتحسّنُ شريكُ خاتمها و مصدرُ
شقائها، و لكنّ الأمرَ يطولُ و يطول فإذا ما جاءتها الشجاعة يوماً
و انفصلت عنه لن تستلذَ براحتها، فما مضى أكثر مما سيأتي،
و جرحُ الماضي يبعثرُ سعادةَ الحاضر و لكنّ سعادةَ الحاضر ليسَ
بإمكانها أن تشطفَ جراحَ الماضي!
لا تنتظر، ضع حداً لتعاستك اليوم، فلا يعيشُ تعاستكَ غيركَ
أنت و أسوأ ما قد يحدث أن ترتاحَ فقط ..
و أعظمُ ما قد يحدث أن تحقّقَ لنفسكَ كرامتها و سلامها فضلاً عن
راحتها!
و لكن قبلَ هذا أو ذاك .. لا تتهور!

لا تصنع لنفسكَ تعاسةً جديدة!

هناكَ بعدٌ كبير بينَ أن تكونَ ذكياً و أن تكونَ حكيماً،
أن تكونَ ذكياً يعني أن تجدَ مخططاً يناسبكَ أنت و قد
لا يكونُ للمدى البعيد.
و لكن أن تكونَ حكيماً يعني أن تجعلَ الأفكار تنبثقُ في
عقلكَ بما يناسبكَ و يناسبُ الجميع!
قراركَ دوماً ليسَ قراراً فردياً، مهما كنتَ و مهما كانَ وصفك!
اعلم أنّ قراراً قد يأخذ دقائقَ لاتخاذه، و لكنّهُ يأخذُ من
المستقبلِ سنين ..
لذا كن حذراً مع أيّ كلمةٍ تقولها و مع أيّ تصرفٍ يبدرُ
منك!

و في كلامنا عن المستقبل، أَ تريدينَ يا شوق أن أذكّركِ بقصةِ
ذاكَ الشاب الذي ماتَ على صوتِ محبوبته؟
كانت مهاتفتنا يومها عادية، مجردَ اطمئنان على الأهلِ و الشعبِ
و الوطن.

سألتني: كم مرّةً تذكرينني في اليوم؟

فقلتُ: اشهدي أنني لستُ أذكركِ و كيفَ لي ذكركِ بدونِ نسيانك؟

لستُ أنساكِ لحظةً، أنتِ كالماءِ بالنسبةِ لي، لا حياةَ بدونك.

كانَ الصمتُ جوابكِ، فتساءلتُ عنِ السبب!

تهربتِ و قلتِ: أوَ ليست أمكِ في حياتكِ كالماءِ أيضاً؟

أوَ كلّما أحببتِ أحداً شبهتهِ بالماء؟

ضحكتُ بهدوءٍ و رددتُ:

أمّي في حياتي كما الماء .. بهِ أحيا و بدونهِ أموت و ما بينهما في حبّها أغرق. أمّا أنتِ فوضعكِ مختلف! عبارتي كلها تغيّر ترتيبها .. أنتِ كما الماءِ في حياتي .. بدونهِ أموت و بهِ أحيا .. و في حبّكِ أغرقُ فيما بينهما!

كدتُ أسمعُ شذا ضحكتكِ لو لم تقطعيها بتنهيدة.

- إنّني أعرفكِ أكثر من نفسي يا شوق، ما الأمر؟
- لا شيء سوى تشغيلٍ لشريطِ الذكريات!
- أعتذرُ منكِ يا شوق، أطربي مشاعري بشريطِ ذكرياتك!
- و هل ما سأحكيهِ يعدّ طرباً؟!

- بالتأكيد، ما هو الطربُ إلاّ عزفاً على أوتارِ المشاعر و لا علاقةَ لنوتاتهِ إذا ما كانت فرحاً أم إيجاباً أم رثاءً أم هجاء!
- على كلّ حال، سأزيدكِ من عمقِ نوتاتي موّالَ فاجعة!

كانَ يتوجبُ أن يكونا معاً، شابٌ و زوجتهُ لأوّلِ ليلة و أرملتهُ لآخرِ العمر! كانَ حفلَ زفافٍ بسيطاً جداً، فهو عسكري لأسرةٍ لا كثرةَ في عددِ أفرادها، و هي فتاةٌ جامعيةٌ مهاجرةٌ مع أسرتها البسيطة لمحافظةٍ أخرى، تحتفلُ مع صديقاتها في منزلها، يرقصنَ و يضحكن، و أمها و اختاها ينشرنَ الأغاريد. و هو يغنّي مع زملائه و يرقصونَ و يتفاخرونَ مَن حركاتهُ في الدبكةِ أجمل، و بالطبع لم يخلُ الأمر من رصاصاتِ فرحٍ يضيعُ صداها في السماء. هاتَفها و صوتُ الرصاصِ و الأغاني يعجّ حوله، أخبرها: نصفُ ساعةٍ و ستكونينَ شريكتي لآخرِ العمر.
سألتهُ: „أَ ستبقى تحبني حتى آخرِ العمر كما تحبني الآن؟„
رصاصةٌ لئيمةٌ غدرت صدرهُ في تلكَ اللحظة، سمعت شهقةً و زادتها واحدةً من عندها!
عيناها تدمع و صوتها تغيّر. تبكي مصدومةً لا تعرفُ ما يحدثُ و لا تسمعُ سوى أصواتِ زملاءِ حبيبها.

سمعتهُ يقول: "أشهدُ أنّ لا إله إلا الله و أشهدُ أنّ محمداً رسولُ الله.
أشهدُ أنّ حبكِ هو ما أحياني و أشهدُ أنه سيبقى حياً بعدَ موتي "
لم تسمع نفساً بعدها و لا صوتَ أنين. ارتمى هاتفها أرضاً و ارتمت هي بعده. منذُ ثلاثةِ أسابيع حتى الآن و هي صديقةُ الفراش في إحدى المستشفيات، لا أحدَ يعلمُ إذا ما كانت ستعيش. يقولُ الأطباء أنّ صدمتها كانت قويةً جداً و احتمالُ صحوتها من غيبوبتها ضئيل!

يا لها من فتاة!
توقّفت نبضاتُ قلبها بعدما توفّي قلبها في ليلةِ زفافه!
أَ تذكرينَ يا شوق؟
و كيفَ لا تذكرين و حوادثُ الوطن لا تغيبُ عن بالك؟
لقد رحلَ الشاب و رحلَ مستقبلهُ، و بقيت الفتاةُ ضائعةَ المستقبل.
قد يقولُ لكِ أحدهم: لا زالت شابةً .. ستتزوجُ و تنجبُ و تنسى!
و هل الزواجُ هو الحل؟
لقد ماتَ قلبها، و لو وجدت منَ الرجالِ أفضلهم فلن يستطيعَ إحياء قلبها، كل ما سيقومُ به هو إعادةُ ترميمهِ مع الوقت.
و هل الوقتُ كفيلٌ بأن يبقى حليفنا حتى نحقّقَ أحلامنا؟!

أينَ المستقبلُ لأطفالٍ باتت منازلهم في مقبرةٍ بجانبِ قبرِ أبٍ أو أمٍ أو كليهما؟

أينَ المستقبلُ لمن يبكونَ فوقَ تلكَ القبور على ما مضى من ذكريات؟

أينَ المستقبلُ لمن يتجمّدونَ تحتَ التراب بصقيعِ أفكارهم حولَ ما يدورُ فوقَ الأرض؟

حتّى الموتى يشعرونَ بنا .. يفكّرونَ فينا

هم ليسوا معنا، و لكننا دائماً كلّ ما يشغلُ تفكيرهم ..

حسبي و حسبنا أننا نبكيهم شوقاً و هم بمأساتنا يشعرون!

ألا يكفيهم تعبُ الدنيا و عذابُ الموت، لِمَ نزيدهم من وجعنا أوجاعاً؟

دعوني أدعو لهم ففي الدعوة قُبلةً لهم و في الصلاةِ على أرواحهم جنّاتُ النعيم.

حسبيَ الله فلستُ أنسى ثقةَ أمٍ بلقاءِ ابنها بعدَ موته.

أودت بروحهِ رصاصة كغيرهِ من عشراتِ الأطفال داخلَ مدرسة.

ركضت أمّهُ كغيرها من الأمهات تستقبلهُ على صدرها مودّعةً،
تمسحُ دماءهُ بيديها، و تغسلُ جراحهُ بدموعها.
لا يحتاجُ أطفالنا لكفنٍ أبيض، فأرواحهم هي كلّ السلام!
منذُ أن رحلَ جسدهُ و ضحكتهُ عن منزلها و هي راحت تركضُ لتفتحَ
الأبواب و النوافذ. حسبوها قد جُنّت لكنهم لا يعلمونَ كم كانَ قلبها
صاحياً على الوجع!
راحت ابنتها لتغلقهم مساءً، لكن راحت هي عاتبةً تفتحهم من جديد.
سألتها ابنتها مع دمعة: „ماما .. ليش هيك عم تعملي؟„
أحاطت بها بينَ ذراعيها و أجابت:
„ستأتي روحهُ قريباً لتزورني ..
و أنا حتّى ذلكَ الحين سأبقى فاتحةً نوافذَ منزلي و بابَ قلبي
له.„

لستُ أدري بِمَ فكّرت تلكَ الفتاة حتّى سألت أمها!
أَ ظنّت أنّها تريدُ الموت؟
أم ظنّت أنّ بهجةَ والدتها رحلت مع أخيها؟
لا أيتها الفتاة، لقد خسرت أمكِ ولداً بفعلِ إرهابيين لكنها لن

تخسرَ أسرةً كاملةً بفعلِ مأساتها!

لطالما جاءَ على الدنيا كقطعةِ لحمٍ انتزعت منها ..

سيبقى معها و دعواتها معه، لكنّها لن تقتلَ أسرتها نفسياً بحزنهم.

صدّقيني يا شوق عندما أقولُ لكِ أنّ الفردَ يصنعُ فارقاً ..

فردٌ واحدٌ يمكنهُ أن يعكّرَ صفوَ أفراد ..

و فردٌ واحدٌ يمكنهُ أن يحيي أرواحَ أفراد ..

فردٌ واحدٌ يمكنهُ أن ينشرَ فساداً بينَ أفراد ..

و فردٌ واحدٌ يمكنهُ أن ينشرَ خيراً و وعياً بينَ أفراد!

- عليكَ أن تحضرَ حصاناً ..
- لماذا؟
- لأنّكَ الآن فارس!
- ألا يمكنُ لفارسِ أحلامكِ أن يأتي راكباً على الحبّ ذاته؟!

تُراها هل توافق؟

حبّذا لو توافق!

لكن كيفَ لها أن توافق و أنا شابٌ مهجرٌ ليسَ لديهِ سوى قلبه

ليقدّمهُ لها؟

كيفَ لها أن تقبلَ الارتباطَ بي؟

شذى! آهٍ لاسمكِ كم يحملُ من شذى يحيطُ بي و يجمّلُ محيطي

عندما أنطقُ به!

آهٍ لعينيكِ، لو تُليت على قومِ قريشٍ لكانوا اهتدوا ..

ما نالت منّي هذي الحربُ شيئاً كما نالتني عيناكِ ..

آهٍ لصوتكِ، لو أنّهُ يلفظُ عذبَ كلماته أمامَ مريضٍ لشُفي ..

آهٍ لشعركِ، لو عرفت به الهند لخاطت منه أجملَ الأثوابِ الحريرية ..

آهٍ لفكركِ، مكتبةٌ عظيمةٌ اجتمعت في عقلِ امرأة ..

و لكن ستقبل، لِمَ لا؟!

فأنا خريجُ جامعةِ الهندسة، و لكن .. أعملُ في أحدِ المعامل الآن!

سأقولُ لها: "أَ تتزوجينني؟!"

إنّها فقط كلمة .. إن قالت: نعم، فيا لسعادتي!

و إن قالت: لا، فقد حاولت.

و لكن إذا قالت "لا" .. لا .. لا، عساها لا تقولها ..

مُنايَ ألّا تقولها!

حتّى لو قالتها، سأحاولُ مرةً ثانية، بل عشرة، بل كلّ يومٍ في حياتي حتّى تنتهي!

لقد تعبَ منَ التفكيرِ الآن!!

كانت أفكارهُ هيَ التي تتحكّمُ به، ليتها تهدأ قليلاً كي يفكّرَ بشكلٍ سوي، و لكن عندما يبدأ التفكيرَ الآخر تعودُ الأفكارُ من جديد على غيرِ إذنٍ منه!!

سينامُ الآن ..

إنّهُ يحاولُ النوم!

الثانيةَ عشر في منتصفِ الليل ..

الواحدة فجراً ..

الثانية فجراً ..

عقاربُ الساعةِ تتراقصُ و تشهدُ حيرةَ نبضاتِ قلبه ..

الثالثة فجراً ..

الرابعة فجراً ..

الخامسة فجراً ..

لا سبيلَ للنوم، لقد عاداهُ هذهِ الليلة!

توضّأ، صلّى ركعتين، قرأ بعضاً من صفحاتِ القرآن لتنيرَ يومهُ و ليرسلَ اللهُ لهُ خيراً في أيّ اختيارٍ أو ظرفٍ كان.

كانت في طريقها منَ المدرسة إلى المنزل مع معلّمتين أُخريتين.

استوقفها قائلاً: أستمحيكِ عذراً، هل لي بكلمة، أقصدُ جملة، أقصد ..

ساعدتهُ بكلمةِ "تفضّل" كي ينسى توترهُ.

- إنّني أستلطفكِ!

رفعت حاجبها و احمرّ خدّاها.

سمعتهُ يهمس „سامحني يا الله„، فاستوقفتهُ „لماذا؟„

داعبَ خصلاتِ شعره و سألها: „ماذا تعنين؟„

"على ماذا سيسامحكَ الله؟„، سألتهُ.

- يسامحني لأنني قلتُ أنني أستلطفكِ ..

- أَ يعني هذا أنّكَ تكذب، ما الذي يدورُ في رأسك؟

بدأت علاماتُ الغضبِ تبدو عليها.

- آسف .. لكن ..
- لكن ماذا؟ .. هيّا .. عليّ أن أذهبَ للمنزل!
- أنا أحبكِ، لا .. أنا أعشقكِ، ليسَ فقط أنني أستلطفكِ!
- لماذا؟
- لا لسببٍ محدد، أعشقكِ لأنكِ كما أنتِ و بكلّ ما فيكِ.

سكتت و سكتَ هو!

كيفَ سيكمل؟!

- هل توافقينَ إذاً؟
- على ماذا؟
- على أن نتزوج .. لستُ فارسَ الأحلامِ الذي في مخيلتكِ ربما ..
- و مَن قالَ هذا؟

احمرّ خجلاً، أَ يعني هذا أنّها موافقة؟!، يفكّرُ بينهُ و بينَ نفسه.

- أَ توافقينَ إذاً؟ سأحبكِ طالما حييتُ و بعدَ موتي.

- عساهُ لا يصيبكَ شر، هل لي بسؤالٍ أولاً؟
- لكِ كلّ ما تشائين!
- ما الذي تتطلبهُ حياتنا كي نحيا باسمِ الحب؟
- لديّ قلبي لأقدّمهُ هنا، سأعطيكِ فوقَ الاهتمامِ أضعافه، سأكونُ دوماً معكِ و أستوعبُ طفولتكِ الداخلية و عنادكِ الأنثوي، سأحترمكِ لأنّكِ نعمةٌ لا تُقدّرُ في هذهِ الحياة .. نعمةٌ لا أعرفُ إذا ما كنتُ أستحقها و لكن أتمنى أن تكونَ معي دائماً!

أجابتهُ على استحياءٍ و دمعةٌ هناكَ في عينيها كادت أن تسقي حمرةَ خدّيها:

- أحببتكَ لتلكَ الكلمات، فكيفَ لا أعشقكَ بكاملِ قلبي، عقلي، قواي و حواسي عندما تصبحُ كلماتكَ واقعاً؟!
- أَ يعني هذا أنّكِ موافقة؟

- كما قد قيل: الحبُّ الحقيقي الذي يدوم هو دقّةُ قلبٍ تليها دقّةُ باب .. فلتحضر لزيارتنا الخميسَ المقبل إذاً.

راحَ يمسحُ دمعتيه، صرخ „لقد وافقت!!!

لقد قالت نعم!!„

سجدَ على الأرضِ سريعاً و شكرَ ربه.

„شكراً لكَ ربي على هذهِ النعمة، أعدكَ ألا أسيء معاملتها

و أن أحميها ما حييت“

كم هوَ عذبٌ الحبّ يا شوق!

تُرانا نحيا حتّى نجدَ الحب؟

أم أنّنا نجدُ الحب حتى نعرفَ معنى الحياة؟

و ليسَ بالضرورةِ أن يكونَ الحبُّ لشخص ..

قد يكونُ لوطنٍ تسامى ليصبحَ معشوقي ..

قد يكونُ لأزهارهِ التي أتذكرُ عبيرها فأتنفسهُ فأحيا ..

قد يكون لترابهِ الذي أحبَّ جارتهُ قطرةَ المياهِ الدمشقية فأنجبا

ياسمينةً أشتاقها و أحنُّ لرؤيتها و مداعبتها ..

قد يكون ..

لا، بل يكونُ لكلّ ما في الوطن!

قلبي الآن دواؤهُ جرعاتُ وطنٍ و كلُّ ما أشتهي فيه و أشتهي لأجله.

ستسألينني ما الذي أشتهيهِ يا شوق!

أشتهي لو أنّ الحربَ تنتهي. لستُ أشتهي أن تعودَ سوريتي كما كانت بل أشتهي أن أراها أقوى و أجمل!

ألا ليتَ الحربَ كانت مجردَ حروفٍ نمحوها فننعمَ ببياضِ الورق و سلامِ الوطن ..

ألا ليتَ الـ "ليتَ" تلكَ تتحقق!

آهٍ كم أحبها سوريا!

أشعرُ أنّها خُلقت كي أحبها ..

كما لو أنّهم ردّدوا على مسمعي عندَ ولادتي الشهادتين في الإسلام و من ثمّ اسمَ سوريا، و بعدها تكفّلَ قلبي أن يبقى على جاذبيةٍ بكلّ ما يتعلقُ بها!

أنا هنا يا شوق، في بلدٍ آخر، قارةٍ أخرى و آلافُ الأميالِ تفصلني عنكِ ..

إلاّ أنّكِ ما زلتِ ملكةَ قلبي، مالكةَ أفكاري و مكمّلةَ روايتي في الحياة!

ها أنا أتنفسُ، أقرأ، أستيقظُ و أنام ..

أنا هنا ..

نعم، هنا!

لكنَّ أفكاري هناكَ في أحضانكِ و تسيرُ راقصةً متجاوزةً حدودكِ

لتستقرَ في القلبِ و تتنهد.

شهيقاً آخذ و من ثمّ ألعبُ الغميضةَ مع أصدقائي لأختبئ

خلفَ أغصانِ ياسمين ..

أراها أشعةَ الشمسِ قادمةً باتجاهنا، أغادرُ على خجل!

أعلمُ أنّ تلكَ الأشعة أتت مغازلةً غصنَ الياسمين لذا

توجّبَ عليّ أن أدعها تتلو ما أوحيَ إليها من عذوبةٍ في

الغزل!

اختصرها المبرد مشاعري عندما قال:

„جسمي عندي غيرَ أنّ الروحَ عندكم ..

فالجسمُ في غربةٍ و الروحُ في وطن ..

فليعجبِ الناسُ مني أنّ لي بدناً ..

لا روحَ فيهِ و لي روحٌ بلا بدنِ!„

كم كانَ محقاً!

أوَ كأنّهُ كانَ يعنيني؟

لقد تركتُ روحي في أحضانِ الوطنِ وديعة ..
و أنا أثقُ تماماً بقولهِ تعالى: „و بشّر الصابرين„!

لا بأس .. عليها سوريتي السلام و قبلاتٌ منّي مسبوقةٌ بدعاء.
لا فراقاً سوريتي، سنشتاقكِ أكثر فإنّنا منكِ و إنّا إليكِ
لراجعون!

يا شوق!
تعالي، سأحكي لكِ قصةَ ما قبل النوم ..
أَ تريدينَ قصةَ ليلى و الذئب أم سوريا و الحرب؟
كلتا القصتين تتشابهان ببراءةِ الطرفِ الأول و وحشيةِ الطرفِ
الثاني!
ليتنا كنّا معاً الآنَ يا شوق كي أداعبَ خصلاتِ الياسمين في
شعركِ بينما أحكي قصتي!
كانَ يا مكان، قلبي معكِ إلى الأبد و منذُ قديمِ الزمان ..
يُحكى أنّ عصفوراً كانت تدغدغهُ مياهُ نافورةٍ شامية ..
و توتة توتة قد جفّت البحرة و هاجرَ العصفور و بعدها لم
تنتهي الحدوتة!

لقد تزوجا، ذاكَ الشابُ خريجُ جامعةِ الهندسة و تلكَ الآنسة الفاتنة.

يا لقباحةِ الحرب و يا لجمالِ حبهما!
ما كانَ قد كذبَ في كلماته و ما كانَ قد أخطأ عندما وعدها بها. و لكنّ الحربَ هي الحرب، تريدُ أن تعيثَ في كلِّ شيء فساداً!
لم يمضِ على زواجهما فترة حتّى اكتشفت أنها ستصبحُ أماً. كانت على موعدٍ عند الطبيب لأولِ فحصٍ للجنين. كانت متحمسة، قد بدأت مشاعرُ الأمومة تنمو عندها بينما كانَ الجنين ينمو في جوفها. الحبُّ هو أن نقضي أوقاتنا المهمة و البسيطة معاً .. فرحاً و حزناً!
لم يكن ليفوّتَ موعدَ حبيبتهِ عندَ الطبيب. فرحَ كلاهما بما أكدّهُ الطبيب. كم كانَ عذباً عندما دخلَ على مسمعها قولُ الطبيب أنهُ سيصبحُ بابا و هي ستصبحُ ماما!
أرادَ أن يفاجئها، طلبَ منها أن تنتظرهُ في مكانها. لم يخبرها لماذا و لكنّهُ أرادَ واقعاً أن يشتري لها وردةً ليشعرها كم هو قد كانَ سعيداً!

ذهبَ إلى الطرفِ المقابل ليشتري الوردة ..

التفتَ ليخرجَ من محلِ الورود و إذ بهِ الدخانُ يتطاير ..

صوتُ صراخٍ يعلو و ناسٌ تركضُ لترى ..

و أخرى تركضُ لتساعد ..

ركضَ بسرعة ليجدها محبوبته ..

بحثَ هنا و هناك ..

لا ..

يا إلهي ..

أرجوك!

يا ربي ..

لم تعد قدماهُ تحمله، و لا عادَ صوتهُ قادراً أن يصرخَ باحثاً عنها ..

لكنّهُ وجدها و قد شوّهت القذيفةُ جسدها!

بعدَ فحوصاتٍ و تحاليل و معالجةٍ و دواء ..

كانت قد خسرت جمالها جرّاء الشظايا ..

حتّى أنها لم تعد قادرةً على الحراك ..

و ما زادها ألماً هو أنها قد أنجبت طفلها دماً في تلكَ الحادثة!

مضت الأيامُ و لم يتخلَّ عنها ..

بل إنّما باتَ مرتبطاً بها أكثر مما كان عليه ..

ما يفعلهُ كانَ بداعي الحب الكبير، و لكنّ الناسَ قد باتوا يرونهُ من بابِ الشفقة ..

يا لهم البشر! .. لا يتركونَ أحداً ليعيشَ سلامهُ أو كآبتهُ وحده، بل عليهم أن يعكّروا كلّ ما كان بكلامهم!

و قد وصلها ما تكلّموا به ..

لم تصدّق أنّه من داعي الشفقة فهي تعلمُ كم هو يحبها!

لكنّ حبها له لم يكن ليقبلَ أن تعذّبهُ أكثر.

فاتحتهُ بالموضوعِ ليلاً عندما كانا يرتشفانِ كوباً من الشاي.

طلبت منهُ أن يكملَ حياتهُ، أن يتزوج و أن يأسس عائلة لن تتمكّنَ هي من تقديمها له.

لكنّهُ يحبّها و لن يقبلَ بإنجابِ طفلٍ ما لم تكن هي أمّه!

قاطعتهُ قائلةً: „و لكنّ كثيرونَ قالوا أنني .. „

و مسحت دمعتها ..

لا يريدها أن تكمل ..

أجابها:

„لا يهمُّ ما قالهُ الكثيرون، أريدُ أن أكونَ الجميع بالنسبةِ إليكِ.

أنا أقولُ أنّكِ كنتِ و لا زلتِ و ستبقينَ جنّتي بكلّ ما فيكِ!„

ضمّها و تابع:

„الحربُ تشوّهُ الإنسان و قد كنتِ أحدَ ضحاياها، و لكنّ الحربَ

لا تشوّهُ نقاءَ الأرواح بل تظهرُ نسبةَ نقائها على حقيقتها.

أحبكِ أنتِ!

و إن قُدّرَ أن يكون لي طفلٌ فسيكونُ منكِ أنتِ!

ليتكِ تسمحينَ لي بأن ألملمَ فائضَ نقاءِ روحكِ و أضعها في روحِ

كلّ عطشان!„

و مَن قالَ أنّ حيواتنا حُكّمَ عليها بالظلام؟
حتّى الظلام يعصي الليلَ أحياناً ..
و يلهو خفيةً مع ضوءِ القمر!

روحي معكِ يا شوق أينما كنتُ„

كانت آخرَ عبارةٍ قلتها قبلَ أن ينقطعَ الاتصال!!

بقيتُ وحدي مع سماعةِ الهاتف على تواترِ دقّاتِ قلبي ..

روحي معكِ يا شوق و لكنّ الله معنا جميعاً أينما كنّا!!

كانتا وحيدتين تحتَ الأنقاض، أمٌ و ابنتها. كانت القذائفُ تنهالُ على تلكَ المنطقة كما المطر. ألا يكفي أنّها تدمّرُ بيوتاً و بل تريدُ أيضاً أن تجعلَ الأنقاضَ فتات!

كانتا تحاولانِ الهرب، و لكنّ إصابةً نالت منَ الأم. بدأت تنزف و تتألم. ضمّتها ابنتها و طبعت على جبينها قبلة. أخذت وشاحها و ضمّدت بهِ إصابةَ أمّها عساها تخفّفُ من شدّةِ النزيف.

طلبت منها أمها أن تتركها و تهرب. أرادت لابنتها أن تنجو بحياتها.

- أرجوكِ يا ماما اهربي! اتركيني و ارحلي و لتعلمي أنّي أحبك.
- ماما .. لا تقولي هكذا .. أرجوكِ .. ابقي معي.

تابعت باكيةً:

- يقولُ تعالى: „أنا معكم أينما كنتم „، أمّا أنا فسأبقى
معكِ و ليتولّى اللهُ أمرَ كلينا!
حلّ الليلُ و ما زالت تمطر، تمطرُ قذائفَ و رصاص.

باتَ وجهُ الأم شاحباً مستلقياً في حضنِ ابنتها التي كانت
تقبّلُ أمها، تدعو و تبكي في آنٍ واحد.
لا أدري عندَ أيّ قبلةٍ فارقت الأمُّ الحياة!
و لكن بالتأكيد عندَ قبلةٍ مليئةٍ بالحنان تصحبها دمعات!
صرخت الابنةُ و بكت ..
لكنّ الصراخَ لن يعيدَ أمّها و لن يمطرَ سلاماً ..
و لن ينهي الحرب!
خلعت سترتها و وضعتها على أمها ..
„أمّي حبيبتي، أريدكِ أن تنامي دافئة، آن لروحكِ الطاهرة
أن ترقدَ بسلام„
الليلُ قد أمطرَ الفتاة حزناً و مشاعر ..
لم تعد تبالي لما يدورُ حولها و لما ينهالُ عليهم من قذائف.
كلُّ ما تريدهُ الآن هو أن تبقى بجانبِ والدتها ..

أن تدعو كثيراً لتجتمعَ بها عمّا قريب.

راحت تدعو و تكرّر:

„اللّهم خذ منّي روحي و ضعها في جسدِ أمي، و إن لم يكن فَخُذ روحي إلى حيثُ تسكنُ روحُ أمي„

أبٌ كانَ لطفلٍ و يافعة، أو وفقاً للقانون فهي لا زالت طفلة فعمرها لم يتخطَ الثالثةَ عشر بعد.

و لكنّ عديمو الرحمة و فقراءَ الإنسانية لا يميّزونَ بينَ طفلةٍ أو امرأة.

الإرهاب؟

هم مَن تهربُ الآمالُ بلقياهم، و هم مَن تهربُ الأحلامُ بوجودِ اسمهم، فكيفَ لو كان فعلهم؟

مَن هم الإرهابُ فعلاً؟

أنتَ مع مَن .. و أنتَ ضدُّ مَن؟

أسئلةٌ جوابها واحد!

أنا مع خيرِ سوريا .. مع سلامها!

أنا ضدُّ الدماء .. ضدُّ الخيانة!

إرهابيٌّ هو كلُّ مَن خانَ الوطن، قتلَ الأحلام و أشعلَ للحربِ فتيلة!

أمّا الأم فقد كانت طبيبةً و سقطت شهيدةً في المشفى التي فجّرها الإرهابيون.
و أمّا الأب فها هو يجمعُ مالاً منذُ سنتين ليهربَ مع طفليهِ من الوطن كي لا يكونَ مصيرهما كحالِ الأم، عصفورانِ في الجنة.
و كانَ الأمرُ الأشدُ طمعاً أنّهُ مع كلِّ يومٍ يمضي تزدادُ أعداد

المهاجرين، و يرتفعُ المبلغ الذي يطلبهُ المهربون أكثر.
و لكن على كلّ حال اقتربَ المبلغُ الذي يجمعهُ الأب من قيمتهِ المطلوبةِ للهجرة.
و في يومٍ ما ..
اختُطِفت ابنتهُ و هي في طريقها من الفرن.
أَ ستكونُ أسيرة؟ رهينة؟ جارية؟ شريكةَ فراش؟ أم ربما الاحتمالُ

الخامسُ، ألا أن تكونَ قتيلة؟

مضى على الأمرِ شهرين و لا أحدَ يعلمُ ما قد حلّ بها!

و الأبُ ليسَ أباً لطفلةٍ فقط، بل لطفلٍ أيضاً. إلى متى سيطولُ الانتظار؟

لا يمكنهُ أن يضعَ طفلهُ رهينةً أخرى أو يدعهُ ليصبحَ ضحيةً جديدةً في عدّادِ الحربِ الذي لا يسألُ كم باتت أعدادهُ ضخمة!

عليهِ أن يهربَ مع ابنه ليأمنَ لهُ المستقبل!

و لكن ماذا عن طفلةٍ يريدُ لمستقبلها السلامَ أيضاً؟

و لكن عساها هي على قيدِ الحاضرِ الآن؟

أفكارٌ تأتي و أفكارٌ تذهب!!

تعالي أيتها الأفكارُ و لا تجيئي!!

لقد وصلهُ خبرُ أنّها رهينة و لكن في الواقع ..

هيَ أيضاً الاحتمالَ الرابع من اختطافها، و ليسَ لشخصٍ فقط و إنّما لِكُثر و رغماً عنها!

لقد طلبوا مبلغاً يتجاوزُ ضعفي ما يملكهُ لتحريرها ..

حاولَ التفاوض و لكن ما مِن سبيل!

كانَ أمامهُ سبعةُ أيامٍ لا غير ..

في عشيةِ نهارِ الخميس، كانَ سيتلقّى هاتفاً آخرَ ليستلمَ و لكن أولاً ليسلّمَ الأموال. سيستلمُ ابنتهُ نبضَ قلبه و التي باتت سلعةً في نظرِ أولئكَ الأنذال. حاولَ في شتّى الطرق أن يجمعَ مبلغاً أكبرَ مما يملك، و لكن في الحرب الجميعُ يحتاج ..

لا أحدَ يضمنُ الغد ليقرضكَ مالاً لبعدِ غد!

أمّا هي فلم تستطع أن تتقبّلَ قرفاً أعمق و إهانةً أكبر.

ليكن سراً بيننا .. لقد اكتشفت أنّها حاملٌ بجنينٍ لم تعرف مَن أباه!

لقد انتحرت في ضحيّةِ يومِ الأربعاء ..

و لكنّ أمثالَ مَن اختطفوها ما هم إلاّ عديمو رحمة، الأموالُ هي الأهم، و لتذهب تلكَ الطفلةُ الأم إلى الجحيم!

اتصلوا بالأبِ يومَ الخميس في الموعدِ المحدد، أخبرهم أنّ المالَ لم يكن كما هوَ مخطّطٌ له، أغلقوا الاتصال على عبارةِ „لقد قتلتَ ابنتكَ بيديك„!

صرخَ و بكى!

مَن سيفاوض؟ رقماً يجهلهُ؟

ممن سيطلبُ العفوَ قليلاً؟

ابنتهُ انتحرت بسببهم، و لكن وفقاً لأولئكَ الأنذال فقد ماتت لأنّ أباها لم يستطع الدفع!

يناجي ربّهُ ليلاً و يدعو المغفرة ..

ينامُ و آخرُ دعاءٍ على شفتيه هو أن تزورهُ حلماً لتقولَ لهُ إنني أسامحك ..

يصحو و لا يريدُ أن يصحو .. لربما كانت ستأتي لو أنّهُ لم يصحُ!

كانَ يقول:

„لو كنتِ ستأتينَ مسامحةً لو لبثتُ في الكهفِ كما فعلوا لكنتُ على استعدادٍ أن ألبثَ ثلاثَ مئةٍ سنينَ و ازدادوا تسعاً، و إن تطلّبَ الأمرُ أكثر!

أَ تعلمينَ يا شوق؟

الانتظارُ عنوانٌ في مدوّنةِ الحياة و لكلٍّ منّا حصةٌ منه ..

لكلٍّ منّا شيءٌ ينتظره ..
لربما كانَ شيئاً قد رحلَ و ينتظرُ عودته ..
و لربما كانَ شيئاً لم يأتِ بعد و لكن ينتظرُ قدومهُ!

خُطّت سطورُ المناهجِ على عقولنا ..
ما كانَ مهماً أكثر هو أن تدرسَ لتأخذ علامةً تضمنُ تفوّقكَ في امتحان. و ماذا عن تفوّقِ الذات؟
ماذا عن التفوّقِ في الحياة؟
الحياةُ طويلة، رغمَ قلّةِ سنواتها طويلة!
لستُ أضمنُ كيفَ أتخطّى حادثةً صغيرة بعدَ قليل حتّى أضمنَ أحداثَ عمري كلّه!
مهما مرّت عليكَ ظروفٌ، يأس وخيانات ..
اعلم أنّ ما نلتهُ لم يكن كلّ شيء!
قد تأتيكَ خيباتٌ و أوجاعٌ تُنسيكَ ما كانَ قبلها من أوجاعٍ سبقتها ..
و قد تمرُّ بكَ خيباتٌ مرورَ الكرام لأنكَ تكونُ حينها قد مللتَ من دورِ الضحية في ما يمرُّ معكَ من مشاهد!

لا تكن دوراً .. و لا تلعب دورَ ,كومبارس, ..
أوَ ليست حياتك؟
إذاً أنتَ المخرج!
انتقي أشخاصَ مسلسلكَ (حياتكَ) بكلّ دقة، إياكَ و أن
تقبلَ بالممثلين لآخرِ حلقة.
مَن لا تثقُ به، دعه يحظى بدورِ كومبارسٍ و يرحل.

ستتألم، و لكنّ الحياةَ لن تقفَ عندَ خيبة!
اجعل من تلكَ الخيبة حلقةً و مضت ..
اعزل مَن قامَ بمشهدها عن وسطكَ الإبداعي!
خذ شهيقاً، اشرب كوبَ قهوة و ابدأ حلقةً جديدةً بتوديعِ مَن
لم تعد تريدهم ممّن كانوا في حياةٍ سابقة ..
حتّى الظروفُ التي قدّمت لكَ خيبةً، قدّم لها تذكرةَ رحيلٍ مختومةً
بنسيان!

أعلمُ يا شوق أنّ كلماتي ذاتَ طابعٍ فلسفي!
عندما أسألُ طفلاً مشوّهَ الروح، علاماتُ الفقرِ تبدو عليه لأنّهُ رثُّ

الثياب، لأنّهُ لم يستحم منذُ أسابيع ..

لأنّهُ يجلسُ في عزِّ البرد على طرفِ الرصيف ليشحذَ لقمة ..

و لكنّهُ ليسَ حافيَ القدمين!!

و كيفَ يكونُ حافي القدمين إذا ما كانت قذيفةٌ ما قد بترت كلتيهما؟!

عندما سأسألهُ: ماذا تريد؟

لن يقولَ لي: أريدُ فلسفةً لأتخطّى خيباتي.

نعم، منَ المؤكد!!

فقد باتت حصتهُ منَ الخيبات أكبر من حصتهِ من لقمةِ عيش!

لقد نالت منهُ الخيبات خلالَ سنتين أو ثلاثة عن خيباتِ عمرهِ كلّه ..

لن يأكلَ مع طابعي الفلسفي ..

و سيهزأ من كلماتي لأنها بلا جدوى في حالته ..

قد يقول: كوني كومبارساً في حياتي و أعطيني رغيفَ خبز.

نعم!!

إنّ ما يريدهُ هو رغيفُ خبزٍ لا أكثر!

أريدُ لكلماتي أن تغذّي عقولاً و هوَ يريدُ رغيفَ خبزٍ ليغذّي معدتهُ!

تعالَ أيها الطفلُ لنشحذَ سوياً!

مَن يُقدّمُ لكَ رغيفَ خبزٍ فلتدعو لهُ بسلامِ كلّ مَن عرفَ و مَن لم يعرف، و أزيدهُ أنا كلماتٍ تغذّي عقلهُ و تنيرُ لربّما ظلمةً في حياته.

وجدتها حزينةً، تحاولُ عيناها إرضاءَ الدموع كي لا تجعلها تسقط!

ترسلُ الشمسُ أشعتها نحوها، تعالي يا صغيرتي لأهبكِ الدفء! ..

توقّفت سيّارةٌ إلى جانبِ الرصيف و أعطتها ٢٠٠ ليرة، ابتسمت و دعت لذلكَ الكريم.

اقتربتُ منها، حضنتها و بكيت. بقيت على حالها دونَ حراك

و بعدها مسحتُ دمعاتي.

أمّا هوَ فقد كانَ ميسورَ الأحوال، سيعوّضهُ اللهُ خيراً تلكَ النقود،

لكنّني عندما حضنتكِ أعطيتكِ قلبي.
أردتكِ فقط أن تعلمي أنّ ذاكَ القلب قد كانَ كلَّ ما أملك!!

آآه يا شوق!
هذي الحربُ قد خلّفت شهداءَ كُثر ..
شهداءَ روح و شهداءَ جسد!
و عن سبيلِ الخطأ، أو ربما عمداً، قد استشهدَ السلامُ في بلدِ السلام!
لم يحدث لي أن قرأتُ يوماً أنّ في باطنِ سوريا كنوزٌ من ذهبٍ و ألماس، و لكن حدثَ أن تيقّنتُ اليومَ أنّ باطنَ سوريا غالٍ جداً بكنوزٍ لنا الفخرُ بها و الحزنُ عليها ..
لقد باتَ جوهرُ سوريا عظامُ أبنائها ..
أوَ ليسوا أغلى كنوزِ الأرض؟
يا لها من خاتمة!!
العظامُ في باطنِ أرضٍ مقدّسة و الروحُ في الجنّة!

براءةُ الأطفالِ يا شوق لا زالت تُنيرُ متحديةً رمادَ الحرب!

سألتها: ماما .. أينَ أبي؟

أجابتها: عندَ اللهِ يا ابنتي.

و تبدأُ الأمُّ تروي وجنتيها دمعاً، تهمسُ لها طفلتها بكلِّ براءةٍ:

„و لِمَ الحزنُ و البكاءُ أمي؟، أبي يستحقُّ أن يعيشَ في مكانٍ أفضل، يستحقُّ العيشَ بأمانٍ بالقربِ منَ الله„.

أَ هيَ تلكَ الطفلةُ ملاك، أم أنّ ملائكةً منَ اللهِ ألهمتها بإجابةٍ تطمئنها و تقوّي عزيمةَ أمّها؟

شكراً لكَ ربي على كلّ شيء!

شكراً لكَ لأنّهُ عندما أنادي اسمكَ، أنادي بكلِّ جسدي و ليسَ فقط بفمي!

شكراً لأنَّ حروفَ اسمك ليسَ منبعها أيٌّ من مخارجِ الصوت، بل إنّما من أعماقِ روحي و من صميمِ قلبي!

اللّهمَّ هب لي من لّدنكَ قلباً يسمعُ اسمكَ فيندهُ لبيكَ إيماناً و ثقةً بالفرج!

يا شوق!

أَ تعلمينَ ما يجعلني مطمئنةً؟

لقد توقفتُ منذُ زمنٍ عن ترديدِ:

„اللّٰهم حقّق لي تلكَ الأمنية أو ذاكَ الأمر„

يا لسعادتي حينَ يستجيب:

„اللّٰهم كلُّ ما تريد فخيري فقط فيما تريد„

أردتكَ أنتَ كي تملأ قلبي ..

و لكن هنيئاً لي ..

لقد امتلأتُ بكَ كلّي أنا!

املأ الفراغات بالكلماتِ المناسبة!

لقد كانت عبارةً شهيرةً في كلّ امتحان و طريقةً معتادةً لنتأكّدَ من استيعابنا لدروسِ المدرسة، لكنّها أيضاً قد كانت تمهيداً لنعي دروسَ الحياة!

عندما تملأ الفراغات بالكلماتِ المناسبة، ستَكْمُلُ الجملةُ و تؤدّي المعنى الصحيح، أوَ ليسَ كذلك؟

لنجاحِ جملةٍ عليكَ أن تجعلَ من كلماتها ناجحة!

و هكذا هي فراغاتُ الروح علينا أن نملأها بأشخاصٍ مناسبين!

ليست الروحُ فقط و بل إنّما القلبُ أيضاً!

قلبي في أحضانِ مَن يا شوق؟

نعم، في أحضانِ الوطن!

و روحي مع مَن يا شوق؟

نعم، روحي معكِ أنتِ!

لذلكَ حتّى الوطن علينا أن نملأهُ بأفعالِ الخير ليغدو وطناً و ليسَ رقعةً محتلة!

حتّى نحنُ نُعتبرُ مستعمرونَ على أرضِ الوطن إذا لم نقدّم لهُ

ما يجعل منهُ وطناً!

أمّا الحربُ فإنّها كريمةٌ جداً ..

كريمةٌ منَ المعنى اللئيم!
أفعالها لا زالت تزدادُ عطاءً على أرضِ وطني يا شوق!
لم تكفيها سبعُ سنواتٍ تعيثُ فساداً، تنشرُ دماراً و تنثرُ دماءً ..
اليومَ سوفَ تنفخُ شمعةَ عيد ميلادها الثامن!
كم هي حنونةٌ سوريتي!
لم يكفيها أن احتضنت أبناءها و أبناءَ الشعوبِ الأخرى ..
على غيرِ قصدٍ منها احتضنت الحرب فجعلتها تنشأ بينَ أحضانها.
يقولونَ ساعةٌ رملية ..
في سوريا نستخدمُ الساعةَ الرمادية ..
رمادُ سوريا لا زالَ في تزايد، أما آنَ لنا أن نعلنَ لذرةِ الرمادِ الأخيرةِ عزاءها؟

لقد مضى على الحربِ عامها الثامن و ها قد اقتربَ عيدُ الأم.
لا تلقِ بالاً أنتَ مع مَن و أنتَ ضدُّ مَن!
هؤلاءِ و هؤلاءِ سوريون .. أولئكَ و أولئكَ هم أخواتكَ منَ الشعب!
ما هو دينك؟ .. حبُّ سوريا
مَن عائلتك؟ .. الشعبُ السوري
ما هو رأيكَ السياسي؟ .. أتمنى لسوريا كلّ السلام

سوريا .. و من ثمّ سوريا .. و من ثمّ سوريا!
فكّر بسوريا فقط و لا تجعل من نفسكَ عاقاً!

لن يأخذَ الأمرُ وقتاً طويلاً، يومانِ و نعودُ إلى بيوتنا!
هكذا بدأت الرواية، روايةُ ثماني سنواتٍ لم تنتهي بعد!
على سوريا أن تبقى وطناً واحداً، و على أيدينا أن تبقى
يداً واحدة.
أَ تعلمينَ يا شوق أينَ تكمنُ المشكلة؟
لم يعد تفكيرنا أن نضعَ أيدينا بأيدي بعض ..
يدٌ تشحذ، يدٌ تقتل، يدٌ تسرق، يدٌ ماتت، يدٌ هاجرت، يدٌ

ترتجفُ برداً، يدٌ تدعي، يدٌ أخرى و يدٌ أخرى ..
لو أنّ أيدينا تلمُّ شملها من جديد، سأكونُ أنا أولَّ المشاركين
و لنعطي لأنفسنا فرصةَ أن تعمرَ سوريا من جديد.
سننسى الماضي و نخطُّ المستقبلَ الجميلَ بأصابعنا كلنا معاً.
و عندما يحدث، لا نريدُ لسوريا أن تعودَ كما كانت، نريدها أن
تصبحَ أقوى فقط، نريدها أن تلمَّ أولادها و أن يتوقفَ الدمَ
جرياناً على أرضها.
الأهمُّ هو أن نكونَ مع بعض حتّى تعمرَ سوريا و تصبحَ
أحلى ..

و لكن آه، "مع بعض" كم صارت مشتّتةٌ حروفها!

„أحبّيني بلا عقدٍ و ضيعي في خطوطِ يدي ..
أحبّيني لأسبوعٍ، لأيامٍ .. لساعاتٍ
فلستُ أنا الذي يهتمُّ بالأبدِ!„

قد فكّرتُ يوماً أنّ نزار قباني رحمهُ الله لم يكن يعي رغمَ
قصائدِ الحبِّ الجميلة معنى الحب الحقيقي ..
أَ أرادَ الحبَّ سهواً لأسبوعٍ، لأيامٍ .. لساعاتٍ؟
لِمَ لَم يكافح من أجلِ الحبّ الطويل؟
و قد حدثَ أنني استغربتُ عندما وافقهُ القيصر كاظم الساهر
على كلامهِ و غنّى قصيدتهُ!
بعدها فهمتُ أنّ كلاهما لم يهتم بالحبِّ الطويل على قدرِ اهتمامهما
بالحبِّ العميق!
كتبها نزار، غنّاها كاظم و تيقّنتُ أنا أنّ هكذا حب هو أعظمُ حب!
عندما لا يضمنُ المرءُ أن يعيشَ للغد و لكنّهُ يريدُ أن يعيشَ كلّ
ما تبقى له من وقتٍ حباً بحب ..

أسبوعٍ، أيامٍ و حتّى ساعات ..
ليسَ مهماً الوقت، و ليسَ مهماً الأبد، ما يهمُّ هوَ أن نقضي ما
تبقّى لنا من وقتٍ مع مَن نحب.

كلاهما قد كانَ يعملُ في مجالِ الخدماتِ الإنسانية ..
الإنسانيةُ هي أكثرُ ما نحتاجهُ في خضامِ الحرب و أكثرُ ما قد باتَ

ينقصنا!

قبلَ أن أهاتفكِ كنتُ أعدُّ مشروعاً عن جسمِ الإنسانِ و أعضائه.

لكن ما عسايَ أفعل، الأفكارُ لا وقتَ لديها ..

تأتي حينما شاءت!!

الساعد؟!

هو جزءٌ منَ الطرفِ العلوي و يمتدُّ بينَ مفصلِ المرفقِ و المعصم.

يتكوّنُ هيكلُ الساعد من عظمتين، و فيهِ الكثيرُ منَ العضلات.

لا اختلافَ لنا علمياً على ذلك!

لكن لماذا عساهُ الساعد حصلَ على اسمهِ هذا؟

لم يخلقِ اللهُ تعالى لنا ساعدين لكي يبقيا ساعدين اسماً، و لا حتّى مصطلحاً علمياً.

„اسمٌ على مسمّى„!

هذا ما يتوجّبُ علينا فعلهُ معَ الساعدِ في أيامِ الحربِ اللئيمة.

ساعد!!

نعم .. ساعد!

ساعد بكلِّ ما أُوتيتَ من خير!

حقٌّ عليَّ أن أجعلَ ساعدي يساعد، أوَ ليسَ كذلك
يا شوق؟!
لكنّا الآنَ بخيرٍ لو أنّ الساعدَ حافظَ على اسمه!
بدلَ ساعد هناكَ: اقتل، قاتل، اسرق، و اكتب شعاراتٍ
لا تمتُّ للحكمةِ بصلة!
بدلَ المساعدة هناكَ: حقدٌ، أنانية، عدمُ رحمة، عنف و قبلَ
كلِّ شيء هناكَ جهل!
لا تبريرَ للعنفِ سوى أنّهُ عنف!
و لا سبيلَ قد قادَ لعدمِ الرحمة و الإنسانية سوى الجهل!
الجهلُ بغايتنا منَ الوجود، الجهلُ بمعنى رحمة، الجهلُ
بضرورةِ الحفاظِ على الوطن و الجهلُ بكونِ المرءِ إنساناً!

نعم .. لقد كانَ كلاهما يعملُ بمجالِ الخدمةِ الإنسانية. يضمّدانِ
نزيفَ الجرحى، يوزّعانِ المعوناتِ الخيرية و يحدثُ أن يُبعثا
لقريةٍ محاصرةٍ مع دواءٍ و طعامٍ و غيرهما.
لقد وقعَ أسيرَ حبّها كما وقعت سوريا أسيرةً للحرب. كانَ
دعاؤهُ أن تكونَ شرايينها محمّلةً بنفسِ الشعور. كان دعاؤهُ

قوياً كدعائنا لسوريا بالسلام!

على غيرِ قصدٍ منه، أو ربما على قصدٍ منه أرادَ معرفة رأيها في الحب. أجابتهُ على غيرِ تردد أنّ الحب ليسَ من أولوياتها، ليسَ في زمنِ الحرب على الأقل، ستكتفي بحبّ الخير للجميع الآن.

لكنّ جوابهُ كانَ قبّانياً على لحنٍ كاظميّ!

أجابها: „يا لسعادتي إن نالَ حبّي من قلبها، لا أعرفُ ما تخبّئهُ الظروف و هذي الحربُ بينَ أفخاخِ قدرها، و لكنّني أعلمُ أنّ الحبَّ حب ما دامَ القلبُ ينبض. و ليكن حبّي لأسبوعٍ، لأيامٍ .. لساعاتٍ، فلستُ أنا الذي يهتمُّ بالأبدِ„

كانَ سيكمل: „أحبّيني بلا عقدٍ و ضيعي في خطوطِ يدي ..

و بل ضيعي في مساحاتٍ ملؤها السماوات والأرض قد خصّصتها لكِ وحدكِ في قلبي„

لكنّها ركضت مسرعةً لإنقاذِ جريح ..

راحت لتنقذَ جريحاً جسدهُ ينزف و نسيت على غيرِ قصدٍ منها جريحاً قلبهُ بالشوق لكلمةِ حبٍ منها ينزف!

حدثَ و أن قرّرَ إخبارها بصدقِ مشاعره. فتحَ الموضوع معها مرةً أخرى ممازحاً: „فتاةٌ تحبُّ الخيرَ مثلكِ، أما آنَ لها أن تعطي للحبِّ فرصة، أما آنَ لها أن تعطي الحبَّ من قلبها خيراً؟„

ضحكت و قد كانت على ظنٍّ بما يريدُ الوصولَ إليه.

- نعم، فكّرت، و أعتقدُ أنّ لكَ فنوناً في الإقناع.
- لي في الحب لأميرتي فنونٌ أيضاً!
- هنيئاً لكما إذاً.
- نعم، عليكِ أن تخبريها.
- لِمَ عليّ أنا؟ أوَ ليست مهمتك؟
- حتّى الشبّانُ الصادقونَ في حبهم يستحونَ بعضَ الشيء، دعينا نقولُ أنّني أحدهم. أَ تساعدينني؟
- ...
- و ليقدّركِ اللهُ على فعلِ الخير!
- سبقَ و أخبرتكَ أنّ لديكَ فنوناً في الإقناع!

مَن هي؟

- تعرفينها ..

فلتدع لحظاتَ الحبِّ الجميل تأخذُ وقتها لتزدادَ لذة.

- إذاً، متى سأساعدك؟
- غداً، خيرُ الأمورِ عاجلها فكيفَ لو كانَ الخيرُ أنتِ، أقصدُ مساعدتكِ؟
- غداً أعملُ كمبعوثةٍ إنسانية لإحدى القرى المحاصرة.

بعدَ غدٍ بإمكاني أن أكونَ مبعوثةً غراميةً لأميرتك!

- أَ تعدينني إذاً؟
- نعم، أعدك!

باتَ الوقتُ يمضي سريعاً و هوَ يفكّرُ كيفَ سيخبرها، لكنّهُ أيضاً يمضي بطيئاً لأنّهُ يشتاقُ لها!

أمّا هي فلا تريدُ التهور و لربما ما حسبتهُ حباً يكونُ فقط من نسجِ مشاعرها ..

لكنّ شيئاً ما يخبرها أن تعيشَ الحبّ لأسبوعٍ، لأيامٍ .. لساعات!

راحَ يرسمها، سيعطيها الورقة و يخبرها ها هيَ من ستكونُ

أميرتي، هي أجملُ واقعاً لكنّها أميرةٌ على الورق و على الرمالِ حتّى!
مضى غداً و أتى بعدَ غد!
لم تأتي بعدَ غدٍ فاشتاقها لساعاتٍ حسبها الدهرَ كلّه. و لم تأتي
اليومَ بعده و لا حتّى الذي بعده. و لا زالت الورقةُ دافئةً في
قميصهِ تتغذى على نبضاتِ قلبه المتخبّط لسماعِ صوتِ أميرته.
لم يكن ما حدثَ معها سوى أنّها قد باتت محاصرةً في القريةِ نفسها

التي بُعثت لتساعدَ أهلها.
و لأسبوعٍ، لأيامٍ .. لساعاتٍ يخفقُ القلبُ حباً و يضخُّ شوقاً
فيروزياً „و بتمر الليالي و بتروح الليالي و بعدك على بالي ..
على بالي„
لقد كانت يتيمةً لأنّ أمها و أباها ماتا في الحرب. كانت
تعيشُ لتحبّ الخير و تفعله، لا أحدَ تبقّى لها سوى ذاتها.
أمّا الآن فهي تدعو أن تستطيعَ الإفلاتَ من الحصارِ قريباً،
هناكَ شعورٌ يختلجُ قلبها و يهمس: „هناكَ أحدٌ بانتظارك„
لربما، لربما تلكَ التي ما بينَ ثنايا الـ "ربما" هناكَ شيء

تريدُ أن تحيا لأجله.

هناكَ الحب!

ها هي تعيشهُ لأسبوعٍ، لأيامٍ و ساعات!

فرجت!!!

عادت لتجدهُ ينتظرها ..

مهلاً، أَ ينتظرُ مساعدتها أم ينتظرُ أميرته؟

- هنيئاً، لقد عدتِ! الحمدُ للهِ على سلامتك، عساكِ بخير؟
- لا و الله
- ما بكِ؟، قالها متلهفاً تلهّفَ المتَلهِفِ بلهفةٍ تجاهَ المُتَلهّفِ لها.

- تأخرتُ بوعدي!
- لا بأس، لربما في غيابكِ قليلاً عاشت أميرتي الحب لأسبوعٍ، لأيامٍ .. لساعاتٍ بعدَ أن أقنعتها بضرورةِ الحب!
- أعتقدُ أنّها فعلت!

أحبّت حباً نزارياً، كاظمياً، عنترياً، قيسياً أحيا بها

الأملَ لتواجهَ الحرب.

أَ أفي بوعدي اليومَ إذاً؟

- لا داعي، أعتقدُ أنّها تعلمُ الآن!
- حسناً، أخدمكِ في أمورٍ أخرى إذاً!
- لكِ كلُّ الشكر و ..
- سأذهبُ الآن ..

كلاهما يحتاجانِ كلمة، كلمةً واحدة ليخطّا بها روايةً في عذوبةِ الحب!

- ... و الحب!
- ماذا؟
- لكِ كلُّ الشكرِ و الحب ..

صامتانِ لثواني ..

لِمَ لم يتدرّب على لحظةٍ كهذه؟

لا بأس!

مشاعرنا الصادقة هي التي نبوحُ بها دونَ سابقِ تفكير أنها
في هكذا مجرىً ستحدث!

- احتفظي لي بصورتها، هي أجملُ بكثيرٍ واقعاً و هي
الأجملُ في نظري، لكن ليسَ كلّ ما تراهُ العين
بإمكاننا أن نصفهُ أو نخطّه!!

و هكذا بدأت روايةُ عصفورين في سماءِ الحب التي عساها الحربُ
لا تفسدُ أجواءها.

قد أتى الحبّ قلبها دونَ ظنٍّ منها أن يجيء!

للحظةٍ أخرى جميلةٍ معاً مستعدانِ هما أن يكافحا!

و توتة توتة عساها تطولُ أيامها الجميلة تلكَ الحدوتة!

غريبوُنَ نحنُ ..

نشتكي وجعاً نحسبهُ عظيماً و ننسى أنّ معَ

العسرِ يسراً!!

و في حينِ أنّ الحربَ تخلّفُ موتى، هناكَ مرضى أيضاً تتركهم ما بين أن يعيشوا و أن يموتوا.

عالقونَ هم في المنتصف، يريدونَ دفعةً يميناً أو شمالاً، كفاهم على الحدِّ الفاصلِ ما بينهما!

شهيقاً أطولُ قد يحيي لديهم أملاً بالغد ..

و لكنّ زفيراً أطولَ يدفنُ لديهم آمال!

يحتاجونَ إعصاراً ليبعدهم عن ألمٍ من آلامِ القلبِ المتكررة ..

و لكن تكفي نفخةٌ واحدة لتلقي بهم في آلامٍ أخرى!

أخبرها الأطباءُ أنّ مستقبلها لهُ مرادفٌ آخر الآن، ألا و هو الموت!

جرعةُ أملٍ قد تنجيها .. فلتحاول أن تعثرَ على فتاتِ أملٍ بينَ تعرجاتِ روحها التي أعتمت!

لا ..!

لا تريدُ أن تتركَ طابعاً حزيناً ضعيفاً عندَ أحبتها، ستكونُ قويةً، إن لم يكن لها فليكن لهم!

هي تعلمُ أنّها ستموت و لكن تذهبُ لشراءِ دوائها بيديها. على الطريق، تخطو خطوةً بعدَ خطوة، تدعو أن يسقطَ منها المرض

على الطريق و الموتُ معهُ يرحل!
تجلسُ مع عائلتها، تحتفلُ بعيدِ ميلادها و هي تعرفُ أنّهُ قد يكونُ حفلَ ميلادها الأخير!

تضحكُ و تنشرُ ضحكتها صدى أمل، بينما ينشرُ المرض صدى أوجاعٍ أكبرَ في جسدها!!
باتت ترى الابتسامات المتواصلة حولها شفقة، و مُداراتها على الدوام تشعرها بواقعِ الموتِ القريب!
مَن يحبّنا بصدق يشعرُ بدونِ طلبٍ منّا أنَّ أوجاعنا أوجاعه ..
ما كُتِبَ لنا من نصيبٍ من ألم يكتبهُ ذاكَ الشخصُ لنفسه و هو على استعدادٍ أن يأخذَ منّا أضعافَ أضعافه!
الحبُّ مشاركة، مشاركةُ الحزنِ قبلَ الفرح.
الحبُّ سبيل، سبيلُ الأملِ من الخيبة.
الحبُّ عطر، عطرُ الإنجازِ بعدَ الحلم.
الحبُّ معجزة، معجزةُ النورِ عبرَ الظلمة.
منَ الحبِّ بدأ كلُّ شيء حتّى غدا الحب كلَّ شيء!!

عائلتها تحبُّها، تتألمُ لألمها و ترسمُ ابتسامةً لتجعلَ منها أقوى!
ستنامُ اليومَ و تدعو ..
لن تكونَ الأحرف هي سبيلها إلى الله بل ستكونُ النوايا.
لن يكونَ دعاؤها منبثقاً من مخارجِ الحروف الستةَ عشر و بل
إنّما منَ المخرجِ الأعمق، الأكثرِ صدقاً، منَ القلبِ وحده!

لقد زدتني لهفةً يا شوق لمعرفةِ ما حصلَ بعدها!
أَ حلمت بالشفاء أم أصبحَ واقعها؟
أَ خرجَ المرضُ من خلايا جسدها كما خرجت الدموعُ داعيةً ليلاً
من عينيّ أمها؟
أَ بقيت على حالها و لكن ازدادت إيماناً أنّ بعدَ عسرٍ يسراً؟
ما الذي حدث؟
تعطشتُ لمعرفةِ ذلك كتعطشها للشفاء!

قُطِعَ الاتصال و لم تكملي يا شوق!
مرّت أيامٌ و كنتِ قد تعبتِ أكثر و ازددتِ ألماً و جروحاً ..

لم أقوَ على سؤالكِ عندها.

و بعدها مرّت حوادثٌ أنستني لشدتها أن أسألَ مرةً أخرى.

سأدعو على كلّ حالٍ لها بالشفاءِ من مرضٍ أصابها و من مرضٍ قد يصيبها.

سأدعو لها من القلب، لها و لجميعِ القلوبِ التي تعيشُ على الأمل.

حتّى قلبكِ يا شوق سأدعو لهُ أن يرتاحَ من مآسيهِ قريباً!

و يقولونَ لك:

„ما أحسسنا بقيمةِ أمانِ سوريا إلا حينَ فقدناه„

لا!!

لقد كنّا نعلمُ بأيّ نعيمٍ قد كنّا نعيش ..

و لكنّنا ما كنّا نظنّ يوماً أنّهُ لن يدومَ للأبد!

لقد كنّا نعلمُ ..

نعم ..

لقد كنّا ..

و لكن حينَ اختلّت الموازين شعرنا بما باتَ ينقصنا!

كانت و كنّا ..

و الآنَ باتت و بتنا ..

تغريدةُ عصفورٍ متألمٍ على حالكِ يا شام تسقطُ أمامها

الحرب!

ها هي الحربُ تَسقط ..

و لكنّها تُسقطُ معها تراثَ بلادي ..

شكراً يا حرب على نوافذَ جريحةٍ فتحتها، سنجعلُ من تلكَ

الفتحةِ منفذاً للحب!

شكراً يا حرب على أبنيةٍ كُسرت ضلوعها، سنرمِّمُ كسورها

بإسمنتٍ براءةُ اختراعهِ تعودُ لقلوبنا!

لسنا نحنُ مَن نسقطُ أيتها الحرب!

لستِ أنتِ التي تكتبينَ روايتنا ..

بل إنّما نحنُ مَن نجعلُ منكِ في تاريخِ سوريا مجردَ عابرةِ

سبيل ..

أو ربما قاطعةَ طريق ..

قد تكوني قد قطعتِ طرقاً و دمّرتِ بيوتاً ..

و لكنّكِ لم و لن تتمكّني من قطعِ الشريانِ الذي يربطُ

أرواحنا بفؤادِ سوريا ..

ستحيا سوريا يوماً و ستموتينَ أنتِ!!

عظّمَ اللهُ محبّةَ سوريا في أوصالنا و ما بينَ الشريانِ و الوريد ..

و سيعظّمُ قلبي شعورَ الشفقةِ عليكِ عندما تلملمينَ حقائبكَ

و ترحلينَ خائبةً على غيرِ عودة!

كلُّ ما فعلتهِ سنصلحهُ ..

و كلُّ ما دمّرتهِ سنعيدُ إعماره ..

و كلُّ ما شوّهتهِ سنعيدُ تجميلهُ ..

أَ تقبلينَ منّي تذكرةً مجانيةً على متنِ رحلةِ النفي باتجاهِ فضاءِ

اللاعودة؟!

- أحقاً أنّ غداً أجمل؟
- هذا ما يُقال!
- دعني أنامُ على أملِ لقائهِ إذاً!!

لربما لا تكتفي الحربُ بأن تسقطَ ركيزةً من ركائزِ أسرة ..
لربما تريدُ أن تسقطَ الأسرةَ ككل بدونِ مبالاةٍ بركائزها.

أيّةُ ركائزٍ تعنينَ يا شوق؟
أفرادٌ أم أشياء؟
قد كانَ أن حكيتِ لي الحكاية و جعلتني أحكمُ بنفسي.

نوافذُ البيتِ جريحة .. لا بأس فالحبُّ يضمّدُ جراحها.
بابُ البيتِ متصدّع .. لا بأس فالانسجامُ يطمئنهُ.
جدرانُ البيتِ مثقوبة .. لا بأس فالحنانُ يملأها.
رمادُ الحربِ مسيطر .. لا بأس فالتواجدُ معاً يطهّرهُ.

أمٌّ و أبٌ يُشبعانِ عينيها نظراتِ حب، كلٌّ منهما هو سندٌ للآخر.
مع طفلينِ صغيرين مجتمعانِ حولَ مائدةِ الطعام للشروعِ بفطورٍ صباحي تبدأهُ ابتسامة.
طفلٌ رضيعٌ أيضاً يُسقى حناناً من صدرِ أمّه.

خمسةُ أفرادٍ معاً، أجساداً، قلوباً و أرواحاً.
لقد كانوا جياعاً و أرادوا إشباعَ الجوعِ بطعام.
كذلكَ الحربُ قد كانت جَوعى و أرادت إشباعَ جوعها بشهداء!

كانَ جوعهم سينقضي بلقمةٍ و أكثر خلالَ دقائق.
أمّا الحربُ فقد انقضى جوعها بعشراتِ الشهداءِ و عددٍ منَ البيوتِ
و الأبنيةِ في جزءٍ من الدقيقة!

و هكذا قد ماتوا معاً كما عاشوا معاً!
شهيدٌ بجانبِ زوجتهِ و ملاكٌ صغيرٌ في حضنها، أخوانِ يتسابقانِ
مَن يأكلُ أسرع كي يبدأ دورهُ بالاختباءِ في لعبةِ الغميضة.
نعم ..
لقد لعبت الحربُ الغميضةَ معَ العائلةِ كلّها. وجدتهم فطوراً صباحياً
كما حالُ العشراتِ غيرهم.
و الآنَ سيأتي أهلُ المنطقة باحثينَ عن تلكَ الركائز (الأفراد) المختبئةُ
بقاياها بينَ الأنقاض ..
أمّا الركائزُ الأخرى كالحب، الانسجام، الحنانُ و التواجد فقد رحلت معهم

إلى الجنّة!

———————

كانوا قد نظّموا مهرجاناً لأبناءِ الشهداء، أقاموا مسرحياتٍ و نظّموا أشعاراً و فقرةَ عرضٍ سحري.

ذاكَ المهرجانُ قد امتدّ لساعتين عساها ترسمُ ضحكةً على وجوهِ الأطفال اليومَ كلّه.

في فقرةِ العرضِ السحري وقفَ أحدهم يعتمرُ قبعةً و زياً أنيقاً يجعلُ منهُ ساحراً. طلبَ طفلاً ليعتلي المسرح. أعطاهُ وشاحاً أبيضَ ليضعهُ في قبعتهِ السوداء ذاتِ الفتحةِ الكبيرة.

حرّكَ بأصابعه، قالَ تعويذةً سحرية فغرّدت حمامةٌ بيضاء. اندهشَ الأطفالُ و صفّقوا.

جاءَ أحدهم مرتدياً قناعاً تعكسُ ملامحهُ القسوةَ و الشر. أحضرَ علمَ سوريا و مزّقهُ و رماهُ في القبعة. طلبَ الساحرُ منَ الأطفال أن يمسكوا أيدي بعض و أن يردّدوا تعويذةً سحريةً أخبرهم بها.

ردّدوا ما قالهُ بكلّ حماس، فأخرجَ علمَ سوريا سالماً.

لربما كانوا على معرفةٍ بما أرادَ إخبارهم به، و لكن إن لم يكونوا

فسيعرفونَ يوماً!

وجدَ الساحرُ طفلاً حزيناً فسألهُ عمّا يريد أن يُخرجَ لهُ من قبعته.

أجابهُ بكلِ براءة: أَ يمكنكَ أن تخرجَ أيَّ شيء؟

أجابهُ الساحر: نعم، أيُّ شيء!

ردّدَ كلامهُ: أَ متأكد، أيُّ شيء؟!

الساحر: أحاولُ ما أقدرُ عليه، ماذا تريد؟!

الطفل: أريدُ أصابعَ أبي!

الساحر: ما هذه؟ أَ يمكنكَ وصفها؟

حسبهُ الساحر يريدُ حلوىً ما أو دمية!

الطفل: أصابعُ أبي ثخينةٌ و كبيرة .. و طويلةٌ أيضاً .. و لكنّ ملمسها دافئ محمّلٌ بحنان!

أصابعُ أبي هي التي كانت تربّتُ على كتفي عندَ خوفي و حزني ..

أنا الآن أبٌ لإخوتي الصغار بعدَ استشهادِ والدي، أعملُ و أُعيلهم.

أريدُ أصابعَ أبي كي أُربّتَ على كتفِ إخوتي ألّا يخافوا و لا يحزنوا.

انتهى العرضُ بدموعِ الفتى و دموعٍ خرجت من عينيّ السحر لا قبعته.

خرجت تلكَ الدموعُ لأنّهُ إنسانٌ يحملُ مشاعراً، لأنّهُ وجدَ موهبتهُ عاجزةً

عن إفراحِ طفلٍ صغير، و لأنّ قبعتهُ لا تسعُ الدنيا أيضاً!

وا كثرتااهُ كم أشتاقكِ يا شوق!!

„لا تأتي يا ريم، ليسَ الآن„، أخبرتني ذاتَ مرة.

أكملتِ: „ليسَ قبلَ أن تحصلي على شهادةِ التخرّجِ التي خرجتِ لأجلها„

„لكنّني أشتاقكِ يا شوق„، أجبتكِ حينها.

„دعي الأشواقَ تكبر، لا بأس!

و لكن دعيني أتأكّدُ من أنّكِ سالمة!„

لقد كنتِ خائفةً بأنّني إن تبعتُ أشواقي اليوم فقد تخسرُ

إحدانا الأخرى.

لكنّ الأشواقَ تتغذّى على سعةِ صبري يا شوق!

أحياناً أفكّر ..

و ليكن!!

لطالما سأرتوي من حضنكِ، لا يهمّني بعدها إن كانت ستبتلعني

الأرض أم تسحبني السماء ..

أم سأبقى حيّةً في ذلكَ النطاقِ الواسعِ بينهما!

أعرفُ أنّكِ تفهمينني يا شوق!
أنا الصائمةُ عن رؤياك، أما آنَ لحضنٍ منك أن يجعلني أُفطر؟

_____

بلا مقدّماتٍ عمّا حدثَ مع هذهِ الفتاةُ و أبويها ..
لم تعد تهمّنا البدايات بقدرِ تطلّعنا إلى النهاية!
باختصارٍ كبير ..
ماتَ والداها في المنزلِ جرّاءَ عملٍ إرهابي ..
كانت هي في الجامعة ..
عادت لترى نفسها فقيدةَ الأبوينِ و الملجأ ..

لم يطل الأمرُ على حزنها حتّى ماتت هي!
كانت وصيّتها أن يُكتبَ على شاهدةِ قبرها الكلماتُ التالية:
„ليسَ تفجيراً جرّاءَ الحربِ ما أماتني ..
بل عالمي بدونِ وجودِ أبي و أمي„

الأكثرُ فاجعةً في الحربِ يا شوق لا يكمنُ بكلِّ ما تقومُ به، بل
إنّما شيء واحد هو ما يجعلنا نكرهها أكثر!

دمّرت بيوتاً من حجارة، فقلنا سنعمّرُ بدلاً عنها ..

لوّثت الجوَّ الدمشقيّ برمادها، فقلنا أوكسجينَ الياسمينِ يعطّره ..

هدمت تاريخنا، فقلنا بحاضرنا السالمِ نصنعُ تاريخاً عريقاً للمستقبل ..

و لكن ..

فجّرت أجساداً، فماذا نقولُ كي نجمعَ أوصالها؟

سرقت أرواحَ الأحبّة، فماذا نقولُ كي نستعيدها؟

أرواحُ الأحبّةِ دَينٌ على الحربِ لا يمكنها أن تردّهُ ..

و أشواقنا كثيرةٌ لا يمكنُ للحربِ تحمّلَ عتابها!

قد قالَ المتنبي:

ما كلُّ ما يتمنّى المرءُ يدركهُ

تجري الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ

حسناً، أُخبرُ البيتَ هذا لمن فقدوا أحبّةً لأخفّفَ عنهم!

لا .. لن أخبرهم ببيتٍ شطرهُ الأولُ و الثاني يحملُ درساً لمواجهةِ امتحاناتِ الحياة!

سأخفّفُ عنهم ببيتٍ شطرهُ الأولُ درساً و شطرهُ الثاني عزاءً

لهم ..
سأقولُ عندها:
ما كلُّ ما يفقدُ المرءُ يُرجعهُ
تجري الأشواقُ بما لا يقوى لهُ الشجنُ

_____

لم يقتصر ما فعلتهُ الحربُ بنا على مجرّدِ أخطاء ..
ما ارتكبتهُ بحقّنا يعدُّ جرائماً!

ما قبلَ الحرب لم يكن للبعضِ إمكانيةَ ارتكابِ الأخطاء ..
هناكَ قانونٌ يحاسب، عاداتٌ تعاقب و ضميرٌ يؤنّب!
الأولى و الثانية لم تعد كما كانت ..
و لا حتّى الثالثة بتاتاً!
نحنُ في زمانٍ لا يعني فيهِ الضميرُ للبعضِ شيئاً سوى أحرفٍ
تجتازُ اللغة!

و لكن عندما وطأت الحربُ أرضنا انبثقت الإمكانية ..
عندما حلّت الحربُ نزعت عنها قبعتها الرمادية، فتحت حقائبها
و باتت توزّعُ فساداً و إمكانيات، و من ثمّ راحت تتمخترُ في الأزقةِ

السوريةِ لتجعلَ منها أرضاً و من سكّانها سماءً!

كشفت الإمكانيةُ عن نفسها الغطاءَ و لم تعد متخفّية ..

و هكذا حصلَ عليها البعض ..

أُتيحت الفرصةُ للجميع، إن لم يكن للجميعِ فللأغلبية ..

و لكنّ البعضَ فقط مَن جرّبها.

حصلوا على الإمكانيةِ فبدأوا أخطاءً و فساداً في الوطن و هم فيه

و هم خارجهُ ..فساداً بالكلامِ أو الأفعالِ أو كليهما معاً!

المبدأ ليسَ في الإمكانية ..

و لا لومَ مئةً بالمئة على الحرب ..

العيبُ في الشخصِ ذاته!

ما أريدُ الوصولَ إليهِ يا شوق هو أنّ القوةَ ليست عندَ مَن

يفتقرونَ الإمكانية ..

لا ..

أبداً ..!!

القوةُ حليفةُ مَن يملكونَ الإمكانية و لكن لا يريدونَ أن يقترفوا

خطأ و لا أن ينشروا فساداً!

أَ تدرينَ يا شوق؟

عيدُ الأضحى لا يختلفُ عن نصرِ ما بعد الحرب إلاّ بكثير!

كلاهما قد كانَ نتيجةَ صبرٍ و تعزيزٍ لقيم ..

في عيدِ الأضحى نُكرم الصبرَ بالأضحية، و لكن في نصرِ ما بعد حرب تكونُ ضحايا البشر هي وقودُ النصر!

عيدُ الأضحى و إن طالت أيّامه فلن تتجاوزَ الأربعةَ أيامٍ منَ العام، و لكنّ النصرَ قد يبقى حليفنا لأعوام.

„حبّذا لو يدومُ السلامُ قروناً!!„

أما كفاهُ النصرُ وقوداً؟

فليشعل مشاعلهُ و يعلنَ فرحةَ سوريا من جديد!

- هل حدثَ و أن أتى أم لا زلتِ تنتظرين؟
- لقد أتاني البارحةَ حلماً بروحهِ الطاهرة ليقول:

„أمي انشلوا جثتي من على رمالِ شواطئ الهجرة

و ازرعوها في ترابِ بلادي„

- لا سبيلَ لكَ للنجاةِ في هذهِ البلاد، كانت تصرخُ بينما تذرفُ الدموع.
- لا أريد!! كيفَ لي أن أبتعدَ عن الشامِ و حبِّ الشام؟، يبكي هو أيضاً.
- مَن قالَ أنّكَ ستبتعد؟ ستعودُ يوماً!

مَن قالَ أنّكَ ستتخلّى عن حبِّ الشام؟ ستحملهُ معكَ في قلبك!

ذاكَ قد كانَ جزءاً من حديثٍ مطوّلٍ بينهُ و بينَ أمّه، إلّا أنّهُ لم يكن أبداً موضوعاً للنقاش. لقد حُسِمَ الأمر، سيسافرُ لا مفر.
و ما مِن مفرٍ لنجاتهِ المحتملة سوى الغربة!

لِمَ هو الوطنُ كبيرٌ بينما القلبُ صغير؟
لحبِّ سوريا الكبير قلبي لا يتّسع ..
و لأن أضعَ وطني في قلبي و أهربَ بهِ أيضاً لا يتّسع!
لكنّ قلبي الصغير يتّسعُ في الوطنِ الكبير ..

رجائي يا سوريا احضني قلبي، و إن لم يكن على أرضكِ
فليكن فيها!

تبقّى يومانِ على الهجرة ..
من أينَ يبدأ؟
و إن بدأ سيشعرُ بأنّهُ لن ينتهي!
مع كلِّ وداعٍ سيتركهُ و مع كلّ قبلةٍ سيعطيها سيتعلّقُ بالوطنِ
أكثر!
للأهلِ، للحبيبة، للأقاربِ، للرفاق و لكلِّ مَن يعرفهُ أو حتّى صادفهُ
ألقى وداعاً على أملِ لقاءٍ قريب.
لترابِ الوطن، ياسمينه، أزقّته، جدرانُ بيوتهِ المتألمة طبعَ بدلَ
القبلةِ عشرات.

و في يومِ الهجرةِ المحدّد ضمّ والدتهُ، والدهُ، أخواتهُ و محبوبته.
ضمّ ترابَ الوطن و أخذَ في راحةِ يدهِ ياسميناً. ضمّهم جميعاً
ضمّةً سريعةً كي لا يبكي على أحضانهم أكثر.

تركَ أحضانهم و رحل ..

لكنّهُ لن يبقى بلا حضن!

لقد حضنتهُ مياهُ البحرِ في أعماقها و قالت له:

„لقد كانَ ذاكَ وداعكَ و حضنكَ الأخيرين„!

حدثَ و أن كانت صديقةٌ لي حزينة. كانَ الأمرُ يتعلّقُ بمستقبلها

و قد شعرت أنّ الحياةَ قد ضاقت بها.

حادثتها محاولةً التخفيفَ عنها، فقالت أنّها تتمنّى الموت.

أخبرتها: „أتمنى أن تموتي إذن .. و لكن .. بحبّي„

ضحكت عندها و انتهى حديثنا على قناعةٍ منها أنّ كلّ ما يحدث

و إن لم نردهُ فقد هيّأهُ اللهُ لنا كي نسعدَ فيما بعد!

سيحدثُ يوماً و تبكي لأنّكَ لم تحصل عل شيءٍ ما ..

و لكن سيحدثُ أيضاً أن تحصلَ على شيءٍ أفضلَ منهُ ينسيكَ إياه ..

و سيحدثُ عندها أيضاً أن تشعرَ بالأسفِ على دمعاتكَ التي سقطت

على جهلٍ منكَ بأنَّ الله يكتبُ لنا الخيرَ فقط!

الموتُ بحبٍّ أحدهم أو شيءٍ ما قد يكونُ جميلاً و لكن أحياناً أخرى

مؤلماً جداً ..

- مَن نحضن؟
- أولئكَ الذينَ نحبهم!
- و هل كلُّ شيء قادرٌ على الحب؟
- نعم، لِمَ لا؟
- البحرُ قد أحبَّ أيضاً ..
- و ماذا فعل؟
- احتضنَ السوريينَ الذينَ أحبهم كي يموتوا في حبّه!

كانت تلكَ محادثةٌ تختصرُ قصّةَ الهجرة، أَ تذكرينها يا شوق؟

_____

كم هي حكيمةٌ بانتقاءِ أغانيها السيّدة فيروز!

قد حدثَ و غنّت „بيئولوا الوئت بيئتل الحب„

مضى على غربتي سنة و لكنّ حبّي لسوريا لم يمت!

الغربةُ و الوقت لم يقتلا الحب و لم يُنقصاهُ حتّى!

و لكن أكملت السيّدة فيروز „و بيئولوا الحب بيئتل الوئت„

هذهِ هي العبارةُ التي كنتُ أبحثُ عنها!

الحبُّ يكبر .. و الوقتُ يمضي .. لكنّ الغربةَ لن تقتلَ الحبَّ و لن تطول!

_____

صباحكِ فيروزيٌّ يا شوق!

قد غنّت فيروز صباحاً „ أنا لحبيبي و حبيبي إلي „، فذكرتكِ!

تذكّرتُ سوريا حبيبتي!

إنّا من سوريا و إنّا إليها لراجعون!

أكملنا حديثاً فيروزياً عندها يا شوق. كم هي عذبةٌ كلماتُ السيّدة فيروز!

ألا يكفيها تغذّي المشاعر و تنقّي الروح؟

و بل إنّما تناسبُ جميعَ الأحاديثِ و الخواطر!

„تعا و لا تجي „

كلماتُ حبيبةٍ قد هاجرَ حبيبها لأوروبا. تريدهُ أن يأتي لتضمّهُ .. لتلغي الحواجزَ بينهما، و لكن في الوقتِ ذاته لا تريدهُ أن يزورَ الخراب و لا تريدهُ أن يصبحَ ضحيّةَ الحرب!

„تعا و لا تجي"

كلماتُ أمٍّ لابنها في الغربة. تريدُ منهُ أن يأتي و يحضنها، لكنّها لا تريدُ منهُ أن يجيء كي لا تفقدهُ للأبد!

„تعا و لا تجي"

كلماتُ عسكري لصديقهِ الشهيد. يريدُ منهُ أن يأتي فهو يشتاقهُ، لكنّهُ لا يريدُ منهُ أن يجيء كي لا تستشهدَ روحهُ عندما يرى أنّ السلامَ لم يحلّ بعد!

„ تعا و لا تجي"

كلماتُ أبٍ أرهقتهُ همومُ الحرب للغد. يريدُ منَ الغدِ أن يأتي لينتهي عددُ الأيامِ المتبقيّة حتّى موعدِ السلام. لكنّهُ لا يريدُ منهُ أن يجيء على خوفٍ أن يكونَ محمّلاً بفاجعة، موت، فقر

و ألمٍ أكبر!

„تعا و لا تجي"

كلماتُ أمٍ استشهدَ زوجها و هي حاملٌ في الشهرِ الخامس. كلماتها لمولودها. تريدُ منهُ أن يأتي و تعيشَ معنى أمومة. و لكنّها لا تريدُ منهُ أن يجيء مخافةَ فقرٍ ستعيشهُ و يتمٍ ارتبطَ باسمهِ و هو في بطنِ أمّه!

„تعا و لا تجي"

كلماتُ أخٍ صغيرٍ لأخيهِ الذي نالت منهُ رصاصةُ قنّاص. يريدُ منهُ أن يأتي ليلعبَ معه. لكنّهُ لا يريدُ منهُ أن يجيء كي لا يعيشَ قسوةَ ما يعيشهُ هو!

„تعا و لا تجي"

كلماتُ شابٍ يحمي وطنهُ و قد زُرعت رصاصةٌ في قلبهِ الطاهر. كلماتهُ

لعمرٍ أطول. يريدُ منهُ أن يأتي ليدافعَ أكثر أو على الأقل ليموتَ في حضنِ أمّه. لكنّهُ لا يريدُ منهُ أن يجيء فهو لا يريدُ أن يشعرَ بالعجزِ أوِ الخيبة أنّهُ لم يحمِ وطنهُ!

„تعا و لا تجي„

كلماتُ زقاقٍ من أزقةِ وطني لمواطن. يريدُ منهُ أن يأتي ليباركَ أرضهُ بخطواته. لكنّهُ أيضاً لا يريدُ منهُ أن يجيء كي لا ينالَ منهُ تفجيرٌ أو رصاصُ قنّاص!

„تعا و لا تجي„

كلماتُ ياسمينِ دمشقَ للمطر. فهوَ يريدُ منَ المطرِ أن يأتي ليسقيه بدلاً من دماءِ الشهداء. لكنّهُ لا يريدُ منهُ أن يجيء خوفاً منهُ أن تختلطَ طهارةُ دماءِ الشهداءِ بالمطر!

„تعا و لا تجي „

كلماتُ أحد المخيّمات للشتاء. يريدُ منَ الشتاءِ أن يأتي لتكتملَ الفصولُ و تُروى الأرضُ خيراً. لكنّهُ لا يريدُ منهُ أن يجيء كي لا يرحلَ معهُ أطفالٌ و كبارٌ بسببِ البردِ و الجوع!

„تعا و لا تجي „

كلماتي لكِ يا شوق. أريدُ منكِ أن تأتيني حلماً. و لكن لا أريدُ

منكِ أن تجيئي كي لا أستيقظَ فلا أجدكِ واقعاً فأزدادَ
شوقاً!

يقولونَ أنّ العتبَ على قدرِ المحبّة!
أرجوكِ سوريا ..
عاتبينا، لومينا و حتّى اشتمينا ..
و لكن أثبتي لنا نحنُ المغتربون أنّهُ رغمَ غربتنا لا زلتِ تحبّينا!

لم تعد أفراحنا كما كانت!
باتت العروسُ ترقصُ في حفلِ زفافها وحيدةً، تودّعُ أهلها للمرةِ الأخيرة.
بدلَ أن تركبَ سيارةً إلى بيتِ شريكِ حياتها، باتت تركبُ طيارةً إلى
غربةٍ يعيشها هو أيضاً.
تستيقظُ صبيحةَ العرسِ على هاتفِ والدتها تدعو لها بعمرٍ سعيدٍ طويل

بدلَ أن تعانقها و تطبعَ على جبينها قبلة.
„ما حاجتي لسمّاعةٍ على أذني تحادثكِ، أريدُ خدّي على صدركِ!„،

قد قالت لأمّها يومها.

كثيرُ من فتياتِ سوريا باتَ نصيبهنّ زواجٌ في الخارج!

و لم تتوقّفِ الغربةُ عندَ سرقةِ طريقةِ أفراحنا، و بل إنّما طريقةُ أتراحنا أيضاً!

كم مِن أحدهم ماتَ في غربةٍ و لم ينعم جسدهُ بترابِ الوطنِ كغطاءٍ لهُ لينامَ نومةً هنيئةً مباركة؟

كم مِن أحدهم ماتَ أحبتهُ في الوطن فوجدَ نفسهُ عاجزاً أن يحضنهم للمرةِ الأخيرة؟

كم مِن أحدهم قد اكتفى بالحزنِ وحيداً بعدَ أن فصلت مدنٌ و أميال قلبَهُ عن حضنِ الوطن؟!

كم مِن أحدهم نامَ على دموعهِ التي تغطّي وسادة بعد أن وجدَ أنّهُ لا نعومةَ كوسادةِ الوطنِ المغطّاةِ بياسمين؟!

كم مِن أحدهم يصلّي في جميعِ الأوقات كي تُفرجَ سريعاً فيعودَ إلى حضنِ الوطنِ مرتاحَ البال؟!

كم مِن ولدٍ و بنت اشتاقا لِحَضْنِ الأهل؟

و كم من أهلٍ اشتاقوا لِحَضْنِ الأبناء؟

و كم من أهلٍ و أبناء اشتاقوا لِحَضْنِ ترابِ الوطن؟!

و كم مِن أحدهم مثلي أنا يريدُ حضناً منكِ يا شوق؟

_____

قد باتَ سهلاً إرسالُ رسالةٍ في البريد ..

و قد توصّلنا لإرسالِ بضائعَ أيضاً ..

الطرودُ أيضاً بتنا على مقدرةٍ لإرسالها من بلدٍ لآخر ..

تُراهُ متى يمكنني أن أطلبَ من أحدهم أن يرسلَ لي عطرَ ياسمينِ

الشام؟ أو رائحةَ المطرِ على ترابٍ دمشقيّ؟

حتّى الهواءُ لهُ رائحةٌ أخرى في دمشق!

متى عساهم يتوصّلوا لإنجازٍ يمكنهُ إرسالُ رائحةِ مَن نحب و ما نحب؟

_____

كلُّ ما حدثَ معهُ قد كانَ سريعاً. حادثةٌ تليها حوادث و لم تكن حادثةٌ لتحدث لو لا أن حدثَ و بدأتِ الحرب!

أخبرتهُ أمّه أن ينتبهَ لنفسهِ و يمشي بمحاذاةِ الجدران كي لا يستهوي جسدهُ الطاهر قناصٌ ما.

ضمّتهُ، طبعت قبلةً على جبينه، وضعت نقوداً في راحةِ يده و أودعتهُ

في أمانِ الله ليشتري خبزاً.

„استودعتكَ الله الذي لا تضيعُ ودائعه„

استودعتهُ الله و نسيت أن تستودعَ نفسها!

بينما تدعو أماناً لابنها تلاشى دعاؤها حينما سقطت قذيفةٌ

أودت بها و هي في حديقةِ المنزل.

عادَ الولدُ فرحاً بسلامته ليجدَ بيتهُ لم يعد بيتهُ و أمّهُ لم تعد

على قيدِ الحياة!

راحَ يقبّلها، يعانقها و يطلبُ منها أن تستفيق. أما كفاهُ قد كانَ

يتيمَ أبٍ سرقتهُ الحرب؟

يتيمُ الوالدينِ قد باتَ وفقاً لجريمتين في مكانين و زمانين مختلفين

قد قامت بهما الحرب.

ما هي إلاّ أيامٌ حتّى وجدهُ تنظيمٌ ما و سرقهُ من بينِ حطامِ بيته.

مَن سيحرسُ جثةَ والدتهِ الراقدة في حديقةِ البيت إذا رحلَ هو؟

طفلٌ قد كانَ و أن يحملَ سلاحاً قد توجّبَ عليهِ أيضاً!

وفقاً لمبادئ و أحكامَ لا أصولَ لها، يغسلُ الأغبياءُ أدمغةَ الأطفالِ

و حتّى الكبار كي تزدادَ طائفةُ الأغبياء!

و لكن أيُّ حظٍ و أيُّ مخاطرةٍ قد كانت عندما تمكّنَ منَ الهربِ
و قامت أحدُ منظمّاتِ الرعايةِ الإنسانيةِ بالتكفُّلِ بأمره!
كانت قدماهُ تخطو أميالاً، أذناهُ تسمعُ صراخاً و بكاء، عيونهُ ترى

فواجع، جلدهُ يلاكمُ برداً قارساً، قلبهُ يرتجفُ خوفاً منَ المخاطر
و عقلهُ يفكّرُ دوماً إذما كانَ هناكَ من غد!
قد وُفّقَ و تمكّنَ منَ اللجوء إلى أحدِ الدولِ الأوروبية. يعيشُ
اليومَ عندَ أحد العائلات التي لم يعرفها من قبل. ما يوقظهُ هو
صوتُ المنبه و ليسَ عصفورَ الحديقة. يقولُ صباحَ الخير لأمٍ ليست
أمّهُ الحنونة التي يشتاقها و لأبٍ ليسَ أباهُ القوي الذي يحنُّ للعبِ
معه. يأكلُ الفطورَ بشوكةٍ و سكين، لا جبنةً على رغيفِ تنور.
يتكلّمُ لغةً ليست لغتهُ ..
و باتَ لديهِ أصدقاءٌ من مختلفِ أنحاء العالم.
اللغةُ قاربنا كي نحطّ على شواطئ الآخرين. قد كنّا نتكلّمُ العربيةَ
في سوريا عامّةً و لكن وصلنا لمرحلةٍ بتنا نعجزُ فيها عن فهمِ بعضنا.
و كيفَ نفهمُ بعضنا إذا اختلّت مفاهيمُ الثقة؟!
قد كانَ على يقينٍ و دعوةً صباحاً و مساء أن يعودَ يوماً. و قد كانَ

يعلمُ أنّ أمّهُ ستكونُ لا تزالُ بانتظاره.

كانَ يكتبُ كلّ ليلةٍ رسالةً و يودعها في صندوق. و عندما يأتي ذلك اليوم سيدفنها بجانبِ قلبِ أمّه بعدَ أن يقرأها لها.

آخرُ رسائلهِ قد كانت و هو في عمرِ السادسةَ عشر!

رسالةٌ من بينِ مئاتِ الرسائل التي يكتبها منذُ أربعِ سنوات:

يقولُ فيها:

„أمي الحبيبة!

تحيةٌ مليئةٌ بالأشواقِ و بعد!

كيفَ حالك؟ كيفَ حالُ زهورِ حديقتنا؟

عساها تلكَ الزهورُ قد باتت عطرة بعدَ أن صارت ترتوي من عذبِ شرايينكِ في التربة؟

عساهُ العصفورُ حافظَ على وعدهِ و لم يتركِ كما فعلتُ أنا؟

أمي الحبيبة ..

أعانني اللهُ على غربةٍ بليتُ بها و قد طالت سنواتها، ألا أرسلي لي أمّاهُ أصابعكِ كي تمسحَ على جبيني. كم من يدٍ أرادت مساعدتي و لكن لم تستطع إحداها بأن لهفةً ترويني.

ترقدينَ أنتِ لا زلتِ وحيدةٍ في ترابِ الوطن، و أنا هنا أحتاجُ

لحضنٍ منكِ حناناً يسقيني.

هنيئاً لروحكِ الطاهرة قد جعلت منَ التربةِ مملكةً، بل جنّة ..

أما بإمكانكِ أن تطلبي منَ الملائكةِ عودتي و هكذا لحضنِ الوطنِ تردّيني؟

أو أيّ أمنيةٍ أخرى، حتّى بإمكانكِ إلى جنّتكِ أن تأخذيني!

و لكن تأكّدي من دعائكِ فأنا أريدُ منكِ بأن بجوارِكِ تبقيني!

أحبّكِ أمي و رضاكِ عليّ يجعلني سعيداً بل إنّهُ

يكفيني

ابنكِ المشتاق„

و مَن قالَ أنّ رسائلنا الصادقة نملأها حبراً؟

القلمُ هو ما يملأها حبراً و نحنُ بدورنا نملأها ابتساماتٍ أو دموع!

تُخلَقُ الأنثى بقلبٍ واحد ليفيضَ حباً و خوفاً على قلوبِ أبنائها

فيما بعد.

كانت قد توضّأت، صلّت، دعت و من ثمّ نامت. منامها ما عادَ مناماً بعدَ أن رأته. لقد أصبحَ كابوساً!

رأت أولادها الثلاثة الذينَ يحمونَ الوطن يموتونَ في حضنه. استيقظت تصرخُ ليلاً. ما عادَ الكلامُ ينبعُ من حلقها. جفّ الحلقُ و حتّى العروق!

تحاولُ استجماعَ نفسها فلا تقدر، تذكرُ الكابوسَ مرةً و اثنتينِ و عشرة!

لا هو كأسُ الماءِ يجعلُ من أعصابها تهدأ و لا هي كلماتُ زوجها تخفّفُ عنها!

ما رأته كانَ كابوساً لا واقعاً و لكنّهُ باتَ يراودها في كلّ حين ..

بل إنّهُ لم يعد يفارقها!

حتّى أنّ صورةَ أمّها المتوفية المعلّقة على الجدار قد لاحظت غريبَ أمرها. دائماً ما هي شريدةُ الواقع. الأغراضُ تقعُ من يدها دونَ وعيٍ منها. و الكلماتُ تقفُ عندَ حدودِ أذنها، تجدها غيرُ مصغية فتتلاشى أو تعودُ أدراجها.

باتَ الكابوسُ يعيشُ معها كما لو كانَ واقعاً. تراهُ أمامَ عينيها طوالَ اليوم و يُرسمُ على جفونها لتراهُ أيضاً ليلاً.

يقولُ محمد المقرن:

أغمضتها كي لا تفيضَ فأمطرت

أيقنتُ أنّي لستُ أملكُ مدمعي

و رأيتُ حلماً أنّني ودّعتهم

فبكيتُ من ألمِ الحنينِ و هم معي

مُرٌّ عليَّ بأن أودّعَ زائراً

كيفَ الذينَ حملتهم في أضلعي

ما انتظرت حتّى أقنعت الأب بضرورةِ هجرةِ أبنائها. أعطتهُ أسباباً كثيرة، بعضها مقنع و بعضها الآخر من نسجِ الخيال. و لكن تجنّبت كثيراً أن تخبرهُ السببَ الرئيسي الذي فجّرَ بركانَ خوفها.

كونَ الشبابِ الثلاثة إخوةً و كونهم ثلاثةً يحمونَ الوطن فقد كانَ

صعباً أن يتمَّ أمرُ هجرتهم.

و لكن بطريقةٍ أو بأخرى تمّ الأمر، هم الثلاثةُ معاً على متنِ الرحلةِ نفسها، على قاربِ الهجرةِ نفسه، و على مقصدٍ واحدٍ لا غيرهُ هو الغربة.

لقد أنقذتهم فما ماتوا شهداءَ في حضنِ الوطن ..

و لكنّ قضاءَ الله ما مِن منقذٍ منهُ سوى الله وحده!

و هكذا ما ماتَ أبناؤها على حضنِ الوطن و دفنوا في قبورٍ يمكنُ للأمِّ زيارتها ..

بل إنّما ماتوا ثلاثتهم في حضنِ البحر، و قد يكونوا قد دُفنوا إذا ما رمت مياهُ البحرِ بجثثهم لرمالِ الشاطئ.

أوَ ليسَ إكرامُ الميت دفنهُ؟

لِمَ لا يردُّ البحرُ جثثنا إلى سوريا بدلاً من تركها مبعثرةً في مياهه و على شطآنه؟!

و واقعاً كانَ أنّ أمّ جدي / نانا/ رحمها الله قد شهدت الاستعمارَ الفرنسي و خرابَ سوريا حينها. و نعيماً كانَ لها أن شهدت سلامَ سوريا أيضاً بعدَ جلاءِ المستعمرِ الفرنسي ذليلاً عن أرضنا. و ألماً كان أن شهدت حربَ سوريا أيضاً التي بدأت في آذار ٢٠١١. و لكن

كانت قد أعتمت في قلبها بقعةً صغيرةً و حلفت أنّهُ لن ينيرها إلّا سلامُ سوريا منَ الحرب.

مسكينةٌ أنتِ يا نانا، رحلت روحكِ و لا زالت تلكَ البقعةُ الصغيرة في قلبكِ معتمة!

أحدٌ مثلَ أمِّ جدي قد شهدَ فاجعتينِ قاسيتين. الأولى كانت استعماراً نعرف مَن فعلهُ، و الثانية كانت و لا تزالُ حرباً قائمة.

و لكنّ الثانية فجميعُ أطرافها بريئةً و تريدُ صلاحَ سوريا من منطلقٍ تراجيدي على مسرحِ الكذب و لا أحدَ مشاركٌ فيهِ سوى فاعلي الشر نفسهم. هذي الأطرافُ قد أقنعت نفسها أنها بريئةٌ و مسالمة و لكنّها ذاتها تبدو شريرةً من وجهةِ نظرِ أطرافِ أخرى.

ما أردتُ إخبارِكِ بهِ يا شوق قد أنساني إيّاهُ حديثٌ آخر!

آآ ..

تذكّرت!

السوري قد قاومَ كثيراً. قد قاومَ جوعاً، برداً، عتمةً، حرماناً، فقداناً، فقراً، تخلّفاً، نفاقاً، خيانةً و حتّى دمارَ الوطن ..

و ما فقدَ الأمل!

و قد تنفسَ شتّى أنواعِ منتجاتِ الحرب ..

قد تنفسَ دخاناً، قنابلَ، رائحةَ بارودِ رصاصةٍ أصابته، كيماوي،

هواءُ غربة ..

و حتّى أنّ أطفالنا باتوا يتنفسونَ شعلةً حتّى ينتشوا و يُغمى عليهم.

و هكذا رأى البحرُ منّا محاربونَ عظماء عليهم أن يدخلوا التاريخَ بإنجازاتهم!

كانَ السوري، الذي يُعطى مثالاً عن آلافِ السوريين، عليهِ أن يُجري اختباراً أخيراً قد نظّمهُ البحر!

هل بإمكانهِ أن يقاومَ قوةَ البحر و أن يتنفسَ في أعماقه؟

انتصرَ البحرُ و ما تمكّنَ سوري أغرقهُ البحرُ من ذلك!

و لكنّنا لا زلنا سوريون عظماء و سيؤرَّخُ حاضرنا في تاريخِ سوريا، شاءَ البحرُ أم أبى!

و لكن جُلَّ ما أتمناهُ أن يُؤرّخَ خيراً و فخراً!

رُبَّ ضحكتكِ خيرٌ من ألفِ علاج!

دعينا نهملُ سيرةَ الحربِ اليومَ يا شوق!
لقد باتت كلَّ ما نتكلمُ فيه، و ما من حديثٍ نبتدئهُ حتّى ننهيهِ بالحربِ و فواجعها.
دعينا نملُّ من ذكرِ ما يؤلمنا .. اليومَ فقط!
دعينا نتكلمُ عن الحب!
الحبُّ الذي هو بدايةُ كلِّ شيءٍ جميلٍ يحدثُ لنا، قد خُلقنا لأجلِ أن نحب!

هل من وجودٍ للحبِّ فعلاً؟

نعم، و بلا ترددٍ أقولها!!
ما لا يفهمهُ البعض هوَ أنّ الحب مشاعرَ تربطنا بأشخاصٍ و حتّى أشياء.
الحبُّ لا يقتصرُ على علاقةٍ بينَ رجلٍ و امرأة.
الحبُّ أوسع، أجمل و أعمق!
حبنا للأهلِ، للأقارب، للأصدقاء و لكلِّ مَن نعرف هو حب!

حبُّ الوطنِ هو أعظمُ حب!
أحبُّ القهوة، الشوكولا، اللونَ الأزرق، هذهِ الفكرةَ و تلكَ الصفة!

أحبُّ الليلَ و السهرَ برفقةِ كتاب!
أحبُّ سوريتي و العالمَ الذي أنتمي إليه!
أحبُّ كوني إنسانةً تحملُ قلباً أزرقَ يمنعها من فعلِ أيّ خطأ أو شيء قد يؤذي غيرها!
أحبُّ الله الذي وهبني الحب و علّمني أنّهُ السبيلُ لسلامِ البشريةِ و الأرض!

أولئكَ الذينَ يرتكبونَ جرائماً و يعيثونَ فساداً، ما للحبِّ في قلوبهم متّسع!
أن قتلَ أحدهم، خانهُ، شرّدهُ، سرقهُ أو ألحقَ بهِ صغيرُ أذىً فهذا تأكيدٌ لانقراضِ الحبِّ عنده!
أو أنّهُ يحب .. الشرَّ مثلاً!

آآه كم أحب، و كم من أشخاصٍ في حياتي أحب و كم من

أشياءٍ أحب!!

سألتني حينها يا شوق لمن أُعطي حبّي الأكبر، أجبتكِ: وطني!

قلتِ: سوريا؟

أجبتكِ: بل سوريا و أمّي، كلاهما وطن و فراقهما غربة.

إنّني أعيشُ غربةً من طرفِ سوريا، و لكنّني أملكُ أمي.

أعيشُ الآنَ غربةَ نصفِ وطني لكنَّ نصفهُ الثاني معي بجانبي.

سيأتي يومٌ و أمحو كلمةَ غربة من أفكاري ..

سيأتي يومٌ حيثُ أعيشُ مع وطني كلّه!

يا لحظِّ الوطن و أمّكِ بكِ، قلتِ حينها.

فقلتُ مصحِّحةً: بل يا حظّي العظيم أنا بكليهما!

جنّتينِ أملكُ بدلاً من جنّة!

قلتِ: أراهنُ أنّ أمكِ هي أغلى شخصٍ في حياتك؟

لا يا شوق!

أمّي ليست شخصاً .. و قليلٌ في حقّها أن تكونَ العالم!

أمّي الكونُ برمَّته!

أمّي ليست لونَ فرح .. و ليست قوسَ قزحٍ حتّى!

أمّي مرادفٌ آخرَ للفرحِ ذاته!

أمّي ليست طيفاً من سعادة .. و ليست ملاكاً!

أمّي الجنّةُ بكلِّ ما أوتيت من نعيم!

سألتني عندها كيفَ أعبّرُ عن عظيمِ حبّي لأمي؟

أجبتكِ: أفعالٌ، كلامٌ و غزل!

أجبتِ ضاحكةً: و عندما كنتِ صغيرةً؟ هل كنتِ أيضاً ريم بنتُ الملوّح أم مجنونةُ ماما؟

إنّني أحبّها أكثر ممّا أحبَّ شاعريٌّ عذريٌّ محبوبته!

ما كنتُ أعرفُ شعراً سوى: ماما ماما .. يا أنغاما!

و ما كنتُ أعرفُ ربّما معنى كلمةَ غزل!

لكنّني أعرفُ أنّني كنتُ أغارُ من أصابعها عندما تداعبُ حبّاتِ السبحة. كنتُ أطلبُ منها أن تداعبَ شعري و تباركهُ بحنانِ أصابعها.
كانت محبوبتي ترى الحبَّ داخلي و لكن لم تكن تدركُ مدى غيرةٍ قد سبقت حبّي!

أذكرُ أيضاً أنّهُ حينَ تضايقت أمي منّي، كنتُ أركضُ بسرعةٍ نحوَ سجّادةِ صلاتها، و بطفولةٍ كبيرةٍ كنتُ أستنجدُ بتلكَ السبحة التي أغارُ منها!
أستنجدُ بها كي أصنعَ قلباً و أتركهُ على السجادةِ فتراهُ أمي حينَ تصلّي!

صغيرةٌ كنتُ و لم أكن أعي جميعَ تصرفاتي!

كنتُ أزعجُ أمّي بتصرفٍ أو فعل، و إخوتي كذلكَ الأمر.
كانت أمّي حينها تخرجُ منَ المنزل لتجلسَ تحتَ البلكون. أراهنُ أنّ تلكَ البقعة تشتاقُ لأمي الآن!

كنتُ أركضُ لاهفةً، أحضرُ قلماً و ورقة و أكتبُ لها كم نحبها، نريدها و نحتاجها. كنّا نملأ الورقةَ سطوراً، رسوماً و ألوان. كنّا نعتذرُ عمّا بدرَ منّا و نشرحُ لها أنّهُ لا وجودَ لنا بدونِ وجودها.

لستُ لأكون و لستُ كما أكونُ الآن لو لم تكن أمي!

كنّا نرمي الورقةَ فتسقطُ في حضنِ أمي فتنجو!

تبتسمُ أمي قبلَ أن تفتحها، قد أخبرها قلبها بكلّ ما سيقال قبلَ أن يُقال!

تقرأ و تبتسمُ أكثر ..

قلبها حنون، و بل إنّما أشدُّ حناناً و رقّةً من بستانِ ورد!

تعودُ للبيت بعدَ دقيقتين أو ثلاثة لتجدنا رتّبنا المكان و حضّرنا شيئاً لنعبّرَ بهِ عن أسفنا عمّا فعلناه.

و يحكى أنّ أمّي هي أمٌ من بينِ الأمهات ..

و لكن أحكي أنا أنّها تعادلُ أمهاتِ العالمِ أجمعين ..

و يحكى أنّها أمٌ كغيرها و ما تفعلهُ قد تفعلهُ أمٌ أخرى ..

و لكن أحكي أنا أنّها فريدةٌ، مثالية و عظيمة!

و كيفَ لتلكَ الفاتنة التي وهبتني العالم ألّا تكونَ عالمي؟

أمي ..

ألا إنّ العالمَ الذي خصّصتهُ لكِ في قلبي أكبرُ منَ العالمِ

الذي تعيشينَ فيه!

قالت لهُ؛ أَ تحترمُ صلاتك؟

قالَ: نعم، و الحمدُ للهِ!

قالت عندها:

أريدُ منكَ أن تحترمني كما تحترمُ صلاتك ..

أن تكونَ لديكَ لهفةُ إسعادِ قلبي كما لديكَ لهفةٌ أن تسعدَ

باستجابةِ دعاءٍ بعدَ صلاة ..

أريدكَ أن تحبّني بكلّ قلبكَ كما تؤدي صلاتكَ بكاملِ حواسكَ

و أفكاركَ للخالق ..

أكملت:

لا صلاةً هي إذا ما كانت دقائقَ نؤدّيها من بابِ رفعِ العتب!

و لا حباً هو إذا كانَ أسيرَ مدّةٍ وجيزة!

حبّذا يا شوق لو أنّ كلّ ما نلقاهُ هو حب ..
من كلمةِ "صباحِ الخير" و حتّى كلمةِ "تصبحينَ على خير" ..
لوقتها كانت الأرضُ بخير، و الوطنُ بخير و الناسُ بخير ..
أنتِ يا شوق كنتِ لتكوني بعظيمِ خير!

عندما يرحلُ أحدهم .. لا يرحلُ معهُ كلُّ شيء!
هناكَ شيءٌ سيبقى ليربّتَ على أشواقنا أو شيءٌ يجعلنا نشتاقُ أكثر.
و قد يكونُ ما بقي هو الذكرياتُ فقط!

تجلسُ بجانبِ النافذة، تشتهي لو أنّهُ معها و تسألُ نفسها عساهُ
أيُّ نجمةٍ يرى من بينِ النجماتِ التي تراها هي الآن؟
تعرفُ أنّهُ يحمي الوطن، و تعرفُ تماماً كم أنّ الجو باردٌ، السماءُ ماطرةٌ و الليلُ عاتم.

تتمنّى لو بإمكانها أن تسرقَ نجمةً و ترسلها إليه ..
نجمةٌ تدفئهُ، تكونُ مظلّةً و تنيرُ دربهُ!

تتذكّرُ القوةَ في جسده، عتمةَ الليلِ في شعره، الفضاءَ في عينيه، قِبلةَ الحبِّ في غمّازته، الخشونةَ في أصابعه و لكن الحنانَ أيضاً ..
تتذكرُ كيفَ وقعَ في حبها عندما كانت تضحك!
كانَ قد قالَ يومها:
„ضحكتكِ كما الشوكولا„
أجابت عندها:
„لكنّ الشوكولا رغمَ لذّتها تضرُّ بالصحة، تزيدُ الوزن، تضرُّ بالأسنان و تسبِّبُ أمراضاً .. ألا زالَ منَ اللائقِ أن تُشبّهَ ضحكتي بالشوكولا؟!„
أجابها:
„إلاَ أنتِ!
ضحكتكِ شوكولا مفيدةٌ للصحة، تزيدُ وزنَ الحبِّ في القلب، تجعلُ الأسنانَ تضحك و تشفي منَ الأمراض حتّى تلكَ المستعصية منها!„

نامت بجانبِ النافذة دونَ أن تشعر. نامت على ابتسامةٍ و استيقظت فجأةً بعدَ دقائق على صرخة. كانت صرختها هي و كانَ قلبها الذي أحدثَ زلزالاً فجائياً في جسدها هوَ ما جعلها تصرخ!

و لم تستطع النومَ بعدها ليلتها!

يقولُ مصطفى صادق الرافعي:

„لا يصلحُ الحبُّ بينَ اثنين إلّا إذا أمكنَ لأحدهما أن يقولَ للآخر "يا أنا"„

و قد كانَ هو هي و هي هو!

عساهُ تألّمَ لتألّمِ قلبها؟

أم أنّ قلبها قد تألّمَ نتيجةَ تألّمِ قلبه أولاً؟

لم تهدأ أفكارها بل إنّما ازدادت توتراً. لم يكن قد هاتفها في صبيحةِ اليومِ التالي ليقولَ لها „صباحُ الخيرِ حبيبتي„.

ذاكَ ما جعلها تضطربُ أكثر!

مرّت أيامٌ و هي تشتاقُ صوته. في كلِّ دقيقةٍ كانت ترسمُ أملاً للدقيقةِ التي بعدها أنّهُ سيهاتفها، و لكنّهُ لم يفعل!
كانَ معتاداً أن يأتي على الأقل في الشهرِ يوماً!
و قد كانَ أن غابَ لأشهر و هو يخوضُ معَ الخائضين في معركة.

مضى على تلكَ الليلة ثلاثةَ عشرَ يوماً ..
رنَّ جرسُ البيت ..
ركضت مسرعةً ..
كانت سرعةُ خفقانِ قلبها أكبرُ من سرعةِ خطواتِ قدميها!

فتحت البابَ لتجدَ رفيقَ زوجها ..
لا ..
ما كانَ هو مَن انتظرته!
أخبرها أنّ حبيبَ روحها قد استشهد!
مَن قالَ أنّهُ حبيبُ روحها؟ هو روحها و بل أكثر!
و برحيلهِ بقيت هي بلا روح!

أعطاها ورقة ..

قد كانت رسالةً من محبوبها خبّأها لها منذُ زمن ليرسلها لها في حالِ استشهد!

قد رحلَ هو ..

و ما بقي منهُ سوى تلكَ الرسالة المعطّرة بدمائهِ و كثيرٌ منَ الذكرياتِ و الأشواق.

لم تغب ذكراهُ عن قلبها ..

يا حبّذا لو أنّهُ ما حدثَ أن افترقنا ..

يا حبّذا لو أنّهُ يحدثُ أن نلتقي!

كانت قد بكت أثناءَ الحرب أكثر ممّا بكتهُ على أوجاعِ عمرها كلّه!

و عندما ابتسمت يوماً ..

جعلوا من ابتسامتها حملةً إعلانيةً أرفقوها بعبارة:

„هكذا ابتسامة هي سلاحنا لنواجهَ الحرب!„

كانت تلكَ المرأة قد فقدت زوجها عندما كانوا في قريتهم جرّاءَ الحربِ اللئيمة و هجماتها. كانت قد فقدت فيما بعد ابنها أيضاً شهيداً. فقدت ابنها الآخر أثناءَ الحصار عندما حاولوا الهرب. فقدت طفلها الذي بعمرِ الثالثة أيضاً بسببِ أنّ جهازهُ التنفسي قد لقيَ حتفهُ جرّاءَ الحصار و الدخانِ المتصاعد.

لم يتبقَ لها ما تخسره!

خسرت زوجاً و ثلاثةَ أبناء، خسرت صحتها، و خسرت أملها أيضاً!

إيمانها يجبرها أن تدعو ألّا تشهدَ خسارةَ وطنٍ أيضاً!

عندما فُكَّ الحصار كانت كاميراتُ التصوير هي ما تستقبلُ تلكَ المسكينة و غيرها.

أوقفتها المذيعة لتسألها عمّ حدثَ لها هناك؟ أَ كانت وحيدةً؟ و أينَ عائلتها؟

سألتها: كيفَ فقدتهم؟

ابتسمت و قالت: لقد استشهدوا جميعاً ..
مسحت دموعاً و أكملت: جميعنا أبرياءَ كنّا، و قد استشهدوا هم و تركوني لوحدي!

و عندها جعلوا من تلكَ الابتسامة شعاراً!
ما أخبرونا بذلكَ الشعار بما قالتهُ و لا بما حدثَ معها ..
أرونا فقط أنّها ابتسمت!
أينَ هي أوجاعها؟
أينَ هوَ كلُّ الألمِ الذي عاشتهُ و لا زالت تعيشه؟
أما رأوا منها سوى ابتسامةِ لحظة؟
أينَ هو بكاءُ شهور؟!

_____

أَ تدرينَ يا شوق؟
سأكتفي اليوم بقولِ أنّني أشتاقكِ!

و قبلَ أن تقولي أنّكِ تشتاقينني أيضاً ..
سأقسمُ لكِ أنّني أشتاقكِ أضعافاً!

دائماً ما اعتدتُ أن أستقلَّ الحافلة و أجلس على الطرفِ الأيسر.
و مع أنّني غالباً ما أقضي طريقي برفقةِ كتاب إلّا أنّني كنتُ أسترقُ النظرَ على الطبيعة من حينٍ لآخر.
كنتُ غالباً ما أستقلُّ الحافلةَ على نفسِ الوقت، نفسِ الكرسي، نفسِ النافذة و بالتالي نفس المشاهد الطبيعية.
كانت الطبيعةُ تخلعُ عنها ألواناً و تتزيّنُ بأخرى مع مرورِ الأيام.
اليوم انتظرتُ الحافلة ..
صعدتها ..
ألقيتُ تحيّةَ الصباحِ على السائق ..
و توجّهتُ نحوَ مقعدي المعتاد لأجدهُ شاغلاً!
جلستُ طبقاً لذلك على الكرسي من الطرفِ الأيمن الذي يقعُ على نفسِ صفِّ الكرسي الذي اعتدتُ الجلوسَ عليه.
فتحتُ كتابي و بدأتُ أقرأ ..
ما كنتُ جرّبتُ هذا الكرسي من قبل و لا هذا الطرفَ حتّى!

كنتُ قد حكمتُ عليهِ دونَ أن أحظى بتجربةٍ معه.

وجدتُ أنّ هناكَ أيضاً مشاهدَ طبيعية تستحقُّ أن يراها المرء ..

حتّى أنّهُ قد كانَ هناك مشاهد لم أحظَ برؤيةِ مثيلٍ لها عندما جلستُ على ذلكَ الكرسي!

في الوقتِ ذاته، اشتقتُ اليوم لمشاهدَ طبيعية لم أجدها عندما جلستُ على هذا الكرسي!

ما توصّلتُ إليهِ عبرَ رحلةِ الاثنا و عشرينَ دقيقةً اليوم، أنّ تقبُّلَ الآخر هو نجمةٌ في سمائنا التي نعيشها على الأرض ..

مع كلِّ تحيّزٍ لنا قد نخسرُ نجمةً ..

و إن كثرت تلكَ النجمات ستعتمُ سماؤنا!

هناكَ ما هو صواب و ما هو خطأ في بعضِ الأمور. و لكن هناكَ رأي و رأي آخر في أمورٍ أخرى.

قد يبدو رأيي مناسباً لنفسي و لكن غيرُ مناسبٍ لغيري ..

و قد يبدو ما هوَ مناسبٌ لغيري غيرُ مناسبٍ لي ..

و لكن في هكذا أمور لا وجودَ من صوابٍ أو خطأ ..

طالما أنَّ رأيي و رأي غيري لن يُلحقَ أذىً بأحدٍ أو بوطن فهوَ

حطبٌ لمشاعلِ الصواب!
كلُّ ما علينا فعلهُ أن نناقش ..
ففي النقاش أشعةُ نورٍ لشيءٍ أو أشياء كانت قد أعتمت في
عقولنا!

سألتني عندها يا شوق: كيفَ للمرءِ أن يعرفَ ما هو الصواب
و ما هو الخطأ؟
وضّحتِ بعدها:
في حالِ الحرب ..
هناكَ أشخاصٌ كثر و آراءٌ كثيرة ..
مَن يحمي الوطن من وجهةِ نظرهِ يكونُ مدمراً للوطنِ من وجهةِ نظرِ غيره!
و هذا أو ذاك ترينهُ وسيلةً لدعمِ أفكارِ أحدٍ قد خطّطَ لكلّ هذا!
أَ مِن طائفةٍ وحدها مباركة؟
أَ مِن تنظيمٍ أو مجموعةٍ هدفها سلامُ الجميع؟
مَن سيتبعُ المرءُ في حالِ تعدّدت الأسبابُ و النتائج؟
أجبتكِ:

سيتبعُ المرءُ قلبه ..
لن يتبعَ أحداً سوى ذاته ..
بداخلِ كلٍّ منّا روحٌ تسعى للسلام، فليتبعها كلّنا!

إنسانيتي لوحدها طائفة و أنا لها أنتمي ..
عقلي لوحدهِ تنظيم و أنا تابعةٌ له!
قلتِ:
أؤيدكِ .. و لكن إذا تَبِعَ كلٌّ منّا عقله ..
أَ تضمنينَ أنّ كلَّ عقلٍ يحملُ أفكاراً سليمة؟!

لم أستطع يومها أن أجدَ إجابةً مناسبة!
كنتِ تملكينَ كلّ الحق!
ما يدورُ في عقلي هوَ سلامُ الوطن و ضحكاتٌ تجعلُ من
قلوبِ شعبهِ سالمةً أيضاً ..
و لكن ما يدورُ في عقلِ غيري قد يكونُ مدمراً، و في هكذا

حالة تتحوّلُ الأمورُ لكارثة إذا ما تَبعَ المرءُ عقلهُ فقط!

و لكن أَ تعلمينَ يا شوق؟

ما مِن أحدٍ يحملُ أفكاراً عنصريةً و قاتلةً للسلامِ منذُ الولادة!

لا بدَّ أنّ هناكَ من شيءٍ أو أحدٍ أو مجموعة قد أثّروا بتلكَ الأفكار!

و ما يؤثّرُ بأحدهم، قد يؤثّرُ بغيرهِ العشرات ..

و مَن يؤثّرُ على أحد، كانَ قد أثّرَ أحدٌ عليهِ أيضاً!

و أحدٌ يؤثّرُ على أحد ..

قد يكونُ التأثيرُ سلبياً و لكن هناكَ تأثيرٌ إيجابيٌ أيضاً!

كلّ ذلكَ مرتبطٌ بالزمانِ و المكانِ و الأشخاص!

و لكن ما مِن شيءٍ كانَ قد خُلِقَ منَ العدم!

- الطاقةُ لا تفنى و لا تُستحدث منَ العدم، أَ ليسَ كذلكَ يا شوق؟

أي أنّ الطاقةَ السلبيّة المدمّرة لم تُخلق من اللا شيء!

- بل إنّما تتحوّلُ من شكلٍ إلى آخر!

أي أنَّ الطاقةَ بدأت عندَ نقطةٍ ما و راحت تغزو نقاطاً (أي أشخاصاً)

أخرى!

مِن أينَ بدأت الحربُ يا شوق؟

مَن أنارَ فتيلةَ الحربِ الأولى؟

ليسَ مهماً!

فقد باتت فتائل!

ما يهمُّ الآن هوَ كيفَ نرشُّ سلاماً على تلكَ الفتائل كي تنتهي الحرب؟!

مع كلِّ فتيلةٍ تُولد هناكَ لهبٌ جديدٌ قد يُولد!

اليوم، و مع أنّ الأمورَ قد تبدو باتت للأحسن، إلّا أنّ الفتائلَ لا زالت موجودةً، و بعضها لا يزالُ مبهماً!

ما أخشاهُ يا شوق هوَ الحربُ الحقيقيّة التي قد نبتدئها عندما تنتهي حربنا الآن و التي نحسبها هي الفاجعةُ الأكبر!

أحبك و أشتاقك جداً!

سألتني عندها يا شوق:

- لمن توجهيها؟

أجبتكِ ممازحةً:

- احزري!

ألا يكفيكِ يا شوق ما يشغلُ تفكيركِ، لقد زدتكِ تفكيراً عندها!

أجبتِ:

- حسناً، أَ أجعلُ تحتَ الكافِ كسرة أم فوقَ الحرفِ فتحة؟

أجبتكِ:

- الحركةُ منهما تلغي الأخرى.

ازددتِ حيرةً و قلتِ:

- لكنّني لم أفهم!

أجبتكُ ضاحكةً:

- أي أنّ كلاهما يصح و عندَ عدمِ تحديدِ الحركة يصبحُ المعنى أعمق!

آسفة لأنني جعلتكِ دقائقَ تفكّرين لتقولي مرةً أخرى:

- لم أفهم أيضاً ..

و لم أحزر ..

ماذا تعنين؟!

شوق عزيزتي، يختلفُ الأمرُ إذا ما كنتُ أقصدُ وطني بالفتحة أم سوريا بالكسرة و لكنّ نتيجةَ الحبِّ واحدة!

في أحدِ المخيّمات هناكَ طفلٌ بعمرِ السابعة، يلعبُ بالرمل، التراب، الحصى، الحجارة و البلاستيك. كانَ قد تعرَّفَ على طفلٍ يصغرهُ بسنةٍ و يسكنُ في خيمةِ اللجوءِ المجاورة.

كلاهما ضحايا حرب، جيرانُ لجوء و أصدقاءُ معاناة.

كانا يلعبانِ معاً و يضحكان ..

حبّذا لو ترى الحربُ جمالَ ضحكتهما ..

تخجلُ من نفسها ..

تودّعنا و ترحل!

و في ذاكَ المخيّم ذاتهُ الذي تنامُ على أرضهِ القاسية آلافُ الآلامِ و الآمال، حضرت عدساتُ الكاميرات لتنقلَ الواقع!

أوقفت المذيعةُ طفلاً لتسألهُ. كيفَ سيظهرُ للعالمِ أجمع؟

هل سيراهُ العالمُ أجمع؟!

باتَ مرتبكاً، لقد عاثت بهِ أوساخُ المخيّم و حالُ الطقس.

لا بأسَ يا حبيبي ما دامَ قلبكَ طاهراً!

سألتهُ عمّا يتمناهُ في المستقبل. لقد كانَ طفلَ الستِّ سنوات.

أجابها:

- لا أريدُ شيئاً في المستقبل، لا أعرفُ ما تعنيهِ الكلمةُ أصلاً!

وضّحت قائلةً:

- أي ماذا تتمنّى أن تصبح؟

أجابها:

- أريدُ أن أصبحَ طفلاً صغيراً كما كانت الحالُ منذُ أيام، عندما كنتُ ألعبُ كرةَ القدم مع أصدقائي في الحيّ و أضحك.

يريدُ أن يصبحَ طفلاً و هو طفلٌ الآن؟!

نعم، لقد هَرِمَ قلبهُ و شاخت أحلامه!

ما يعيشهُ جريمةٌ بحقّ الطفولةِ التي باتَ يفتقرها!

و منذُ أيام التي تحدّثَ عنها كانت في الواقع ما يقاربُ السنتين!

جاءَ طفلٌ آخرَ و نكزَ المذيعة. سألها إذا ما كانت تريدُ معرفةَ

ماذا يريدُ أن يصبح. أومأت برأسها مع ابتسامة.
قالَ لها أمامَ الكاميرات و فيما بعد أمامَ العالم:

- أريدُ أن أصبحَ طيّاراً. أريدُ ذلكَ كي أطيرَ فوقَ سوريا لأطمئنَّ إذا ما كانَ هناكَ من منطقةٍ لا زالت بخير!

نقلت عدساتُ الكاميرات واقعَ صغارٍ و كبار. كانت إحدى النساء قد نزحت و زوجها إلى المخيّم و هي حاملٌ بالشهرِ الخامس.
لقد وضعت توأماً من رحمها على مهدِ المخيّمِ و الخذلان!
بينما تتحدّث رأيتُ خلفها فتاةً تتزحلقُ على هيكلِ الخيمة. ازدادَ بكائي عندما رأيتها. لقد وهبتني أملاً أنّ الأملَ بحدِّ ذاتهِ لا زالَ موجوداً ..
كما ألقت في قلبي ألماً، أيُّ طفولةٍ تعيشها تلكَ الفتاة؟
لقد جعلت منَ الخيمةِ التي تذكّرها بقسوةِ الحرب سبيلَ فرحٍ مؤقتٍ لها!

توجّهت الكاميرات فيما بعد إلى بقعةٍ أخرى منَ المخيّم. عندما رآهم طفلٌ ما، خبّأ علبتهُ خلفَ ظهره.
داعبت المذيعةُ خدّهُ المتصحّر و سألتهُ إن كانَ بإمكانها إلقاءُ نظرة

على علبتهِ.
لم يرضَ بدايةً لكنّهُ خشيَ من حزنها الذي أظهرتهُ له ممازحةً.
وضعَ أمامها العلبة، فتحتها لتجدَ بها طلقاتَ رصاصٍ قديمة.
كانَ قد جمعها عندما كانَ في سوريا منَ الأبنيةِ المتوفيّة
و الأزقّةِ المصابة.
جمعَ تلكَ الرصاصات ليلعبَ بها ..
ليلعبَ بالموت!
ليبني فيها بعد أشياءَ جميلةً من خرابِ الحرب!

و دائماً يحدثُ أن يلهمنا الله صبراً، قوّةً و أملاً عبرَ أشياءَ كثيرةً.
كلُّ ما علينا فعلهُ هوَ أن نهتمّ للتفاصيل!

في ذاكَ المخيمِ أيضاً تعيشُ يتيمةٌ مع أخيها الصغير. يخافُ هوَ من عتمةِ الليل. يخافُ أن تسرقهُ قذيفةٌ كما سرقت أبيهِ و أمّه ليلاً منذُ شهور. لكنّهُ يطمئنُّ عندما يمسكُ بيدِ أخته.
هي أختٌ، أمٌ، أبٌ، سندٌ و أمان!

كلُّ تلكَ الأماني و الأحلام التي تحملها قلوبُ أطفالٍ ظلمتهمُ الحرب،
أَ تراهُ هل سيكونُ لهم من غد؟ و هل سيحملُ الغدُ معهُ فرصاً

لتحقّقَ أحلامهم؟

كم تمنّيتُ يا شوق أن أهديهم بدلَ دموعي التي انهالت فرحاً،
أو حتّى فاؤهُ فقط إن أمكن.
بدلَ أن أفتحَ موقعَ إنترنت كي أرى أخبارهم، تمنّيتُ لو بإمكاني
فتحُ صندوقٍ من سلام لأوزّعَ خيراتهُ عليهم.
بدلَ أن أذهبَ و أمدَّ يديّ للماء لأغسلَ دموعي، تمنّيتُ لو بإمكاني
أن أمدَّ يديّ و أساعدهم أجمعين.
أتمنّى لو بإمكاني أن أسرقَ الحزنَ في قلوبهم و أدفنهُ في تربةٍ غيرِ
صالحةٍ للزراعة كي لا ينبتَ الحزنُ، يزهرُ أحزاناً .. و يمتدُّ إلى أرضِ
وطننا من جديد!

يكفيني أنتِ لأعلنَ أنّني و العالم سنظلُّ بخير!

حاشاهُ قلبي أن تضيقَ بهِ الحياةُ يوماً و أنا لديّ ربٌ يريدُ سعادتي ..

حاشاهُ الأملُ أن يموتَ في قلبِ أحدنا و نحن على إيمانٍ بربٍ عظيم!

لا زالَ هناكَ أناسٌ جيّدونَ لم نعرفهم بعد ..

لا زالَ هناكَ حبٌّ حقيقي قد لا نكونُ اكتشفناهُ بعد ..

لا زالَ هناكَ موسيقى جميلة لم نسمعها بعد ..

لا زالَ هناكَ خفايا قدرٍ رائعة لم نعشها بعد ..

لا زالَ هناكَ أشياءٌ سعيدةٌ لم نفعلها بعد ..

لا زالَ هناكَ أحلامٌ عظيمةٌ لم نحقّقها بعد ..

كلُّ هذا و أكثر يجعلنا، إن ضاقَ أملنا يوماً، نقولُ أنّهُ لا يزالُ هناكَ أمل!

تحدّثنا البارحة يا شوق و قد لاحظتُ أنّكِ قد كنتِ حزينةً.

حاولتُ أن ألقي بذرةَ سعادةٍ في قلبكِ و لكنّ ترابهُ قد كانَ جافاً.

لا تحزني يا شوق ..

فلتضحكي دائماً ..

و أمّا الذينَ أرادوا يوماً حزنكِ فتبّاً لهم و حزناً عساهُ يسكنُ قلوبهم!

سألتكِ عن سببِ حزنكِ. أجبتِ عندها أنّهُ وليدُ قلقكِ على مواطنونَ و مهاجرون. لو بإمكانكِ أن تتوقّفي عن التفكيرِ بهم و لو لدقيقة!

تفكّرينَ بصغيرِ الأمور و حتّى كبيرها ..

تفكّرينَ بلقمةِ الطعام و حتّى الموت ..

خبرٌ جميلٌ يمطرُ قلبكِ و لكنّ أخباراً حزينةً تعصفُ بالأمطارِ بعيداً!

مَن ماتَ فليرحمهُ الله، و لكن أحياؤنا بحاجةٍ لكبيرِ رحمةٍ أيضاً!

أصبحت جرّةُ الغازِ حلماً ..

ساعةٌ متواصلةٌ منَ الكهرباءِ أمنية ..

خزّانُ مياهٍ ممتلئ رغبة ..

و مازوتُ الشتاءِ أو حتّى حطبهُ يحتاجُ لألفِ صلاة!

حتّى البيوتُ ضاقت بساكنيها و المدارسُ ضاقت بلاجئيها!

جدرانُ المدرسةِ متصدّعة و الناسُ التي تقطنها كثيرة. باتت المدارسُ بيوتاً تضمُّ مئات.

هنيئاً لهم!

لقد جمعت الحربُ شملهم!

و على كثرةِ الناسِ الرماديةِ المشاعر ..

و على كثرةِ الحيطانِ التي برزت مشاعرها تصدّعاً ..

قد عجزتُ عن إيجادِ جوابٍ لسؤالي هذا:

هل الجدرانُ تسندُ أولئكَ النّاس ..

أم أنّ الناسَ هم سندُ الجدران؟

كانت قد قالت لهُ يوماً في سياقِ أحدِ الأحاديث:

- أَ يعني هذا أنّني روحٌ تكمّلك؟

أجابها:

- حاشاكِ أن تكوني هكذا، أنتِ روحي الكاملة!

كانَ ذلكَ الحديث قبلَ أن يغتربَ ليلمَّ شملها فيما بعد و يحظوا بعائلةٍ في سلام.

يشتاقها هوَ في الغربة و تشتاقهُ هيَ في الوطن.

تخافُ عليهِ من قسوةٍ في الغربة، و يخافُ عليها من قسوةٍ في الوطن.

سرقتها الحربُ منهُ كما سرقت غيرها!

كما ودّعت هي الحياة .. ودّعت الحياةُ كثيرين!

كانَ يقولُ: اصمدي قليلاً، هانت الأمور، سنجتمعُ قريباً!

و كانت تجيب: لا تقلق!

فيسألُ هو: أحبكِ .. ألا زلتِ كذلك؟

تجيبهُ معاتبةً: و ليكن عندكَ عظيمُ إيمانٍ أنّني سأبقى أحبّك مهما ساءتِ الأحوال!

الحياةُ قد تهديكَ سعادةُ قلبٍ أو راحةُ بال ..

و لكن مَن يحبّكَ بحق يسعى أن يهديكَ كليهما!

و يسألونكَ:

- كيفَ الطريقُ إلى الحب؟
- لا تقلق بشأنِ الكلمة .. الاهتمامُ يصنعها!

أمّا هو و هي فكانا يسعيانِ للسعادةِ و الراحةِ معاً. كلاهما تخطّيا بالاهتمامِ هواءَ الحب ليحلّقا في فضاءِ الهيام!

كانت الأمورُ تقسو أكثرَ في الوطن و الشوقُ يقسو عليهِ أكثرَ في الغربة.

اصبروا و صابروا و لعلّها تأتي سعادتينِ بدلاً من سعادة!

انتظرَ بعظيمِ لهفةٍ للقياها، لكنّ الحربَ قابلتها بهديةٍ لئيمةٍ أولاً.

ألا يكفي فقدانهُ عائلة، تركهُ للوطن و الآنَ فقدَ حبيبة؟!

كتبَ رسالةً و وضعها في قميصه، بذاكَ الجيبِ الصغير الملامسِ لقلبه، كتبَ فيها:

„أَ تدرينَ متى تكونُ الحربُ الحقيقية؟

تكونُ أيامي عندما لا أعيشها معكِ!

أَ تدرينَ متى بدأت غربتي الحقيقية؟

عندما علمتُ أنّهُ ما من سبيلٍ للقياكِ!„

هوَ الآن على حافةِ الهاوية، لم يتبقَ ضئيلُ خطوةٍ ليسقط. هوَ يريدُ السقوط، لا يريدُ أن ينهضَ و يكمل. يريدُ ذلكَ بشدّةٍ لأنّهُ عندما يسقطُ و يصلُ قاعَ تلكَ الهاوية لن يحدثَ أن يسقطَ مجدداً!

و هل من سقوطٍ بعدَ السقوطِ الأعمقِ الأخير؟

أمّا هي فتحبّهُ، تحبّهُ فعلاً!

تحبّهُ و حتّى بعدَ موتها لا زالت تحبّه!

الحبُّ يستمرُّ بعدَ الموتِ حتّى ..

نعم، في حالِ أنَّ المرءَ أحبَّ بروحهِ لا بقلبه ..

ما يحدثُ هوَ أنّهُ عندما يموتُ القلب يحيا الحبُّ على دقّاتِ الروح!

أَ تدرينَ يا شوق ما أفكّرُ به؟

أَ تدرينَ لِمَ يموتُ بعضُ النّاس؟!

الأحلامُ لا تكملُ عندما ينامُ الناس ..

هناكَ دائماً أحلامٌ بلا نهاية!

و قد نامَ أولئكَ البعضُ منَ الناس نوماً أبدياً كي تكتملَ أحلامهم

و تحظى بنهايةٍ جميلة!

لو حدثَ و أن غنّت السيّدة فيروز:

„بيئولو الحب بيئتل الحرب .

و بيئولو الحرب بتئتل الحب„

لكنتُ استخدمتُ هذي الكلمات كمطلعٍ لكثيرٍ منَ الرواياتِ التي

حدثت في وطني!

ما حدثَ لها أن ودّعتهُ لتقول „يا حبيبي .. لا .. لا تروح„

بل إنّما حدثَ فجأةً أن صارَ معتقلاً و كتبت لها الحربُ روايةً

جديدةً و ضاعَ الحب!

ما طالَ اعتقالهُ لأكثرِ من سنتين ..

ما كانَ يسمعُ إلاّ أصواتاً تسألُ و تهدّد، و أصواتاً تبكي و تتوسّل ..

ما كانَ يرى سوى العتمة، و هل العتمةُ شيءٌ تستحقُّ تلكَ العيونُ المسالمةُ المتأمّلةُ خيراً رؤيتهُ؟!

ما فعلوهُ بهِ و بغيرهِ جعلهُ يكرهُ اللحظةَ التي كانَ يعيشها و اللحظةَ التي سبقتها ..

أمّا اللحظةُ التي بعد، فقدْ فقدَ الأملَ بها تماماً!

في تلكَ المعتقلات تحدثُ أشياءٌ لا يعلمها سوى الله وحده ..

حتّى الشخصُ ذاته يكادُ لا يدركُ ما يحدثُ لهُ في مرحلةٍ ما

لكثرةِ الألمِ و ما خلّفتهُ الإهانةُ و وسائلُ التعذيب!

ما كانَ الفاجعةَ الحقيقيةَ هوَ أنّهُ لم يكن يعلمُ بسببِ تواجدهِ هناك.

قد فكّرتُ مسبقاً ..

„لا يمكنُ إلغاءُ ارتباطِ الفردِ بالجماعة„

قد يكونُ ما فعلهُ ذاكَ الشاب عملاً فردياً نُسِبَ لجماعةٍ فلقيَ

حتفهُ ..

و قد تكونُ الجماعةُ ذاتها سيطرت عليهِ كفردٍ منها فلقيَ حتفهُ ..

و قد تكونُ الجماعةُ أيضاً قد عملت ما عملت فلقيَ هو لكونهِ فرداً منها حتفهُ ..

لكنّهُ ما عاشَ سوى لذاتهِ و ما وثقَ سوى بالسلامِ و الحب!

ما حدثَ أن فكّرَ كفردٍ لجماعة و لا سيطرت على أفكارهِ جماعة ..

جُلّ أفكارهِ كانت أن يُوفَّقَ بعملهِ، يتمكّنَ من دفعِ إيجارِ غرفته و يشتري لمحبوبتهِ خاتمَ خطوبة ..

فقط هذا ..

لا أكثر!

في ذاكَ المعتقل، ما قتلت الحربُ الحب بل إنّما قتلَ الحبُّ الحربَ!

كانت العتمةُ قد حاولت أن يقعَ في حبّها، ييأسَ و يموتَ هناك ..

لكنّ حبّهُ كانَ لمحبوبتهِ فقط و لن يهبهُ لغيرها ..

كانَ ذاكَ الحبُّ يتحدّى العتمةَ و يزيدها أشعةً من نور!

الحبُّ الوحيدُ الذي قتلتهُ الحربُ هناكَ هو حبُّ الإنسانيةِ و الرحمة!

أخبرَ العتمةَ يوماً متحدثاً عن محبوبته:

„و تلكَ الثانية التي تندهُ بها اسمي أعيشها الحياةُ الحلوة كاملة!„
و عندها فقدت العتمةُ الأملَ بأن يحبّها يوماً ..
كما اعتقلَ فجأةً ..

نجا منَ الاعتقالِ فجأةً أيضاً!
سيذهبُ بسرعةٍ إلى القرية بثيابهِ البالية، شعرهِ الطويل،
ذقنهِ الكثيفة و الدماءُ و الجروحُ تغطّي جسدهُ.
لن ينتظرَ بعد ..
سيطلبُ منها الزواجَ اليوم، لا يريدُ أن يبعدَ عنها لحظةً أخرى!
ما كانت تغيبُ عن بالهِ لحظةً و لن تغيبَ من جانبهِ نصفُ
لحظةٍ الآن.
لكنّ الحربَ التي اختبرت عمقَ حبّهِ قد اختبرت عمقَ حبّها أيضاً.
كانت تحبّهُ حقاً و لكنّ سنتين بلا أخبارٍ عنهُ جعلتها تفقدُ الأمل ..
أَ مِنَ أملٍ بعدَ انتظارها أم سيضيعُ انتظارها سدىً؟
أَ يا غائباً، قبلَ غيابكَ أخبرني إذما كانَ من لقاءٍ لأنتظرَ موعدهُ!!
راحت عالقةً بينَ حبّها و تفكيرِ مجتمعها.

خطأ كبيرٌ أن ربيت مجتمعاتنا على مقولةِ "البنت مالها غير بيت زوجها" ..

البنتُ لها ذاتها، لها قلبها، لها مستقبلها. بيتُ زوجها لن يسقطَ إن لم تدخلهُ اليوم و لكن قد يسقطُ مستقبلها إذما دخلتهُ اليوم.

و هكذا تتحوّلُ أفكارُ الفتاة من إرضاءِ نفسها لإرضاءِ زوجها.

و مَن قالَ أنَّ الزواجَ كلُّ شيء؟

الزواجُ هوَ ما يتبقّى بعدَ أن تبني الفتاةُ ذاتها و مستقبلها.

الزواجُ قد يحدثُ أن يكونَ مكمّلَ السعادة، إلاّ أنّهُ ليسَ السعادةَ كلّها!

على كلّ حال ..

وصلَ القريةَ متوجّهاً لبيتها ..

يستقبلهُ أخوها الصغير و يخبرهُ أنّها مع أمّها في السوق تبحثُ عن فستانِ زفافها.

أيا عتمةً إن تجودي عليهِ و تسرقيهِ ثانيةً قبلَ أن يراها تُزفُّ لغيره!

مَن أرادَ العيشَ معها لحظةً بلحظة ستغيبُ عنهُ الآنَ للأبد ..

ستحضنها أيدٍ أخرى و ستُتلى على مسامعها كلماتُ شخصٍ

آخر.لقد قتلت الحربُ ذاكَ الحب!

هيَ حربٌ واحدة تقتلُ ألفَ قصةِ حب!

كنتُ لأقول أنّ المحبوبةَ قد تركتهُ ..

هي لم تتركه، بل إنّما تركت في قلبهِ وجعٌ و غصةٌ لن يمحيها الزمن!

هوَ الآنَ ضائعٌ في مساحاتِ قلبٍ ما كانَ جميعُ سكّانها إلّا هي!

و بعدَ غيابِ مَن أو ما أحببنا حقاً ستغيبُ عنّا حياتنا التي كانت

و لن نتمكّنَ منَ العودةِ إلى الأشخاصِ الذينَ كنّا عليهم يومها!

قفا نبكِ من ذكرى أحبةٍ و منازلِ

بذكرِ الوطن تغدو أشواقنا حواملِ

عساكِ بخيرٍ يا شوق؟

أَ تعلمينَ أنّني أشتاقكِ في الثانيةِ أعوام؟

سألتني عندها:

- أَ تشتاقينني أيضاً عندما تكونينَ وحيدةً؟

أجبتكِ:

- و مَن قالَ أنّني أكونُ وحيدة؟

أنت معي في داخلي على الدوام!!

الله وحدهُ و أنا نعلمُ كم أشتاقكِ و لا أحدَ غيرنا بإمكانهِ

أن يعلمَ و لو كَثُرَ مَن يظنّونَ أنّهم يعلمون!

- مالي بهدوءِ العالمِ حولي إذا كانَ قلبي يصرخُ شوقاً؟
- شوقاً لماذا؟
- شوقاً لكِ ..
- و مالكِ تشتاقينني إذا ما كنتُ لا أفارقكِ؟
- شوقاً للسلامِ الذي سيمحي رمادَ الحرب ..
- و مالكِ برمادِ الحرب إذا كانَ قلبكِ يندهُ سلاماً؟!

لا يكفي لقلبي أن يندهَ يا شوق ..

أريدُ لعينيّ أن تنعمَ برؤيةِ السلامِ واقعاً ..

آآه منها هذي الحرب، أَ لم تملَّ منّا لتتركنا بسلامٍ و ترحل؟

لا بأسَ إذا ركضنا وصولاً لأهدافنا، أم مشينا أم حتّى

زحفنا ..

ما يهمُّ هوَ أن نتابعَ المسيرَ على الطريقِ الصحيح!

و أمّا هذهِ الحربُ فقد كانَ طريقها طويلاً جداً و حتّى الآن لم

نرَ أينَ ينتهي ..

طوالَ الطريق كانت الحربُ و لا زالت قويةً ..

لم تفقد طاقتها أبداً ..

و لم تتوقّف قليلاً لنتمكّنَ من استئصالِ الرحمةِ و الأمانِ

القليلينِ المختبئينِ بينَ طيّاتها ..

المشكلةُ هي في الطريقِ الذي تسلكهُ الحرب!

أمّا مَن يدعمها فيراهُ صحيحاً ..

و أمّا نحنُ فنراهُ خاطئاً ..

ألا أيتها الحربُ تمهلي قليلاً لنقنعكِ لأيّ هاويةٍ تسارعين!!

و لو حدثَ أن كانَ لإنسانيةِ البعضِ آخرَ ظهور لكانَ منذُ سنين ..

و عندَ البعضِ قد حُذِفَ الحسابُ نهائياً ..

و لكن هناكَ أمل ..

البعضُ الآخر لا تزالُ إنسانيتهم "متصل الآن"!

كانت في الصفِّ الثالث، تستعدُّ للذهابِ إلى مدرسةٍ ما تبقّى منهت إلّا أضلاعاً قليلةً من جدران، و أعصابُ النوافذ قد تلُفت نهائياً!

أبوها يشربُ كأسَ الشاي قبلَ ذهابهِ للعمل و أمّها تتركُ أخاها الصغير على بطانيةٍ على الأرض بعدَ أن أرضعتهُ لتعدَّ لها سندويشةَ زعتر ..

قذيفةٌ حنونةٌ أرادت أن تقولَ لهم "صباحُ الخير، أنا هنا"!

أمّا والداها و أخوها فقد ماتوا جرّاءَ تلكَ القذيفة. و أمّا هي ظلّت تبكي و تتألم، عاجزةٌ قدمها عن الحراك!

إن حاولت سحبَ نفسها من تحتِ الإسمنت تتألم و ببقائها ساكنةً تتألمُ أيضاً ..

كم بقيت تنزفُ و تتألم إلى حينِ أهداها قلبها رحمةً و أوقفَ نبضاته!!

شوق!

يا شوق! ..

رأيتكِ سعيدةً بعدَ حزنك ..

لا، لم أكن أحلم ..

بل عندي إيمانٌ بأنّ الله سيستجيبُ دعائي و يفرحَ قلبي ..

نعم، سيفرحكِ قريباً يا قلبي!

شوق ..

أنتِ قلبي!

و ما بينَ قافِ اسمكِ يا شوق و قافِ قلبي فاقَ الشوقُ

للمقصودةِ حدودَ قلبي!

شوق ..

قد قلتها مسبقاً و أقولها مجدداً ..

إنّني أعيشُ اسمكِ شوقاً على شوق!

العاطلونَ عنِ الأشواق يمتلكونَ بالاً هادئاً ..

لكنّني لستُ كذلك ..

بدوامٍ كاملٍ دائماً ما أشتاقكِ!

شوق

كانَ يقولُ لها:

- أحبكِ أكثرَ من نفسي ..

و كانت تجيب:

- و أنا أحبكَ أكثر يا مرآتي!

كانَ هذا قبلَ أن تحبَّ الحربُ فكرةَ التفريقِ بينهما!

الحبُّ يُبنى على تقبّلِ الاختلاف و لكن يُهدم بناءً على الخلاف!

ما فرّقَ بينهما هو الآراءُ السياسية ..

أفكارُ العائلات ..

الأطرافُ و الجماعات ..

الحرب ..

أو ربما باختصار: الوطن!

قد كانت بالنسبةِ إليهِ تعدُّ وطناً!

أَ حدثَ أن تركَ الوطنُ شعبهُ و رحلَ إلى غربة؟

لكن هي فعلت!

رحلت و عائلتها إلى بلد ..

هو و عائلتهُ هاجرا أيضاً بعدَ أشهرٍ إلى بلدٍ آخر.

ينتظرُ منها أن ترسلَ جملةً، كلمةً أو حتّى حرفاً!

يريدُ الاطمئنانَ عليها أنّها بخير!

رقمهُ لا زالَ على حاله بانتظارِ رسالةٍ أو اتصالٍ منها.

أنشأ عدّةَ حساباتٍ على كافةِ وسائلِ التواصلِ الاجتماعي باسمهِ شخصياً لتتمكّنَ منَ الوصولِ إليهِ أنّما أرادت.

و ينتظرُ منها كلمة ..

أمّا هي فلا خبراً، حساباً أو رقماً يدلُّ عليها!

قد عاشت، تعلّمت لغةً جديدة، درست، قرأت، رقصت، سمعت أغانٍ جديدة و احتفلت بأعيادٍ أكثر، لكنّ فكرها لا زالَ هوَ يشغله.

يتساءلُ بينهُ و بينَ قلبه إذا ما كانت لا زالت تذكرهُ ..

إذ ما كانت تفكّرُ بذكرياتهما معاً و تبتسم ..

أم أنّها يا تُرى تصنعُ ذكرياتٍ جديدةٍ مع أحدهم؟!

هو و هي ..

كما لو أنّهما شخصين بمكانين مختلفين لكنّ الأفكارَ هربت منهما لتجتمعَ سوياً دونَ أن يشعرَ أحد!

اشتاقت جداً ..

اتّصلت بعدَ ثلاثِ سنوات ..

- كيفَ حالك؟
- أشتاقكِ جداً!

- أَ نسيتني؟
- نعم .. لقد نسيتكِ قبلَ أن تتصلي بثواني!
- أَ لديكَ حيّزٌ منَ الفراغ، أريدُ أن أحدّثك؟
- لأجلكِ أُفرغُ كلَّ حيّزٍ و أملأهُ بكِ و أكتفي!

تصمت ..

لقد عرفها منَ الكلمةِ الأولى ..

عرفها منَ الإحساسِ العميق الذي لم يجدهُ إلّا في صوتها ..

منَ المشاعرِ اللامتناهية التي جعلت من صوتها يرجفُ بينما تتكلّم.

تكمل:

- أَ قلتُ لكَ كم أحبكَ جداً؟
- لا عليكِ فإنّي أشعرُ بها جداً!
- حبّي لكَ و الموتُ واحد ..
- الموت؟!
- نعم ..

إنَّ حبّي لكَ لم يمت، أَ سمعتَ يوماً بموتٍ يموت؟!

في روايةِ هذينِ العاشقين، قتلَ الحبُّ الحربَ و الغربة ..

حبّوا بعضن ..

تركوا بعضن ..
و لكن لا زالوا يحبّونَ بعضهم!
قد وجدَ الحبُّ طريقهما معاً و يريدُ أن يوحّدهُ من جديد!
و راجعين يا هوى .. راجعين!

اتصلتِ بي يوماً ما لتقولي لي:
- الطيّبونَ للطيبات كي يعيشا و الأهل في المجتمع
حياةً كريمةً طيبة!

و دائماً ما تفهميننني يا شوق ..
كنتِ تعرفينَ جيداً أنّني كنتُ بحاجةٍ لتوضيح.
ابتدأتِ القصةَ دونَ أن أسألكِ عنها ..

كانَ شاباً في التاسعةِ عشر، يقفزُ كاللّصوص من فوقِ سورِ
المدرسة ليحضرَ لها رسالةً في الاستراحة. و هي كانت في

الخامسة عشرة.

تقرأ كلمةَ "أحبــك" منهُ فيذهبُ عقلها و لا يجيء!

و هل تكفي كلمةُ "أحبك" في هذي الحياة؟

طفلٌ بعمرِ السنتين بإمكانهِ نطقها ..

و عجوزٌ يلتقطُ أنفاسهُ الأخيرة يمكنهُ أن يقولها ..

ما يهمُّ هو ماذا يُقصدُ وراءَ الكلمة و كيفَ هي ترجمتها واقعاً!

تقرأ "أحبــك" فتذوبُ و تضحك ..

لم تعد تفكّر ..

فكما قد قيل، ذهبَ عقلها و لم يجيء!

دعاها للمشي معاً بعدَ المدرسة في المزرعة ..

معاً؟ و في المزرعة؟

أيّ حبٍ صادقُ النيّةِ هذا؟!

لم تفكّر أيضاً!

أخبرت أباها الذي يثقُ بها أنّها ستكونُ عندَ صديقتها لتدرسا معاً.

الأهلُ يثقونَ بنا و يحبوننا جداً. هم الوحيدون الذينَ لا ينتظرونَ منّا شيئاً في المقابل، فقط ألّا نكسرهم يوماً و نجعلهم يندمون!!

جاءت بسترةٍ حمراء، العطرُ تسابقُ جسدَها رائحتهُ و شفتاها مغطّاتانِ بأحمرِ شفاهٍ أخذتهُ خفيةً من درجِ أمّها.

إنّ الأمورَ كانت واضحةً، لكن وحدها هي كانت عمياءَ عنها لا تراها!

جلسا معاً ..

بدأ بمسكِ يدها ..

ثمّ أحاطَ كتفيها بذراعه ..

حاولَ تقبيلها ..

فاحمرَّ وجهها و قالت أنّها تخجل ..

طلبت منهُ أن يخبّئ تلكَ القبلة لحينِ زواجها ..

أن اقتنعت أنّهُ يحبّها، قلنا لحقت أوّلَ إحساسٍ اعترى قلبها

في حياتها ..

و لكن أن تسرحَ بأحلامها بعيداً جداً ..

ما شاءَ الله!

سيزوجان أيضاً؟!!

عقلهُ يستهزأ بطريقةِ تفكيرها بينما تتحدث ..

الرجل ..

الرجلُ و ليسَ الذكر!

و ذاكَ أنّ كلّ رجلٍ ذكر و لكن ما كلُّ ذكرٍ يعدُّ رجلاً!

الرجلُ الذي يحبُّ فتاةً بحق يحترمُ تفكيرها قبلَ جسدها ..

يخطّطُ للزواجِ بها طيّبةَ السمعة ..

يغارُ عليها من أن تتناقلَ الألسنُ سيرتها ..
و الأنثى الرائعة هي التي تصونُ نفسها، قلبها و أفكارها إلى
حينِ إهدائهم "لرجلٍ" يستحق!

حاولَ الاقترابَ منها أكثر ..
أرادَ من تلكَ الساعةِ أن تقضي على شرفها، سمعتها، ثقةَ
أبيها، قلبَ أمّها و مستقبلها أيضاً.
و الغريبُ أنّها أتت تريدُ أيضاً!
أتت تريدُ ذلك على غيرِ إدراكٍ منها ..
بمجردِ مجيئها ..
بمجردِ الحديثِ مع فتىً متسكّعٍ منذُ البداية كانَ لعنةً ..
أرادَ الحصولَ على ما يدمّرها للأبد ..
أرادَ الحصولَ على ما نتيجتهِ كسرُ سندها، أباها، أمها و عائلتها!
حاولت أن ترفض!
وعيت في تلكَ اللحظة على ما كانَ سيحدثُ على مرأى عينيها!
فتىً متسكعٌ مثلهُ خطّطَ لما سيحدث قبلَ أن يحدث، لم يقبل

الرفضَ أبداً!
حاولت أن تصدّهُ فأصبحَ وحشاً أخطر!
تناولَ الموس الذي اعتادَ أن يكونَ في جيبه و طعنها عدّةَ مرّات

حتّى غابت عن الوعي!
ما لم يفعلهُ على مرأى عينيها، فعلهُ على مرأى الموت الذي
جاءَ يصحبها!

أيُّ غباءٍ قد كانَ منها أن تهبَ حياتها، مستقبلها، ثقتها و احترامَ
عائلتها لأحدٍ كانَ يقفزُ من سورِ المدرسة ليتلاعبَ بها
و بالكلمات؟!
كما يصنعُ الحبُّ عشّاقاً، فإنّهُ يصنعُ أيضاً مغفّلين!
و كما يتعلّقُ الحبُّ الحقيقي بأن يكونَ واقعاً، فإنّ الحبَّ المغفّل
يبني عالمهُ على الأساطير!
قد كان خطئاً أن وثقت بهِ لحدِّ الموت!
و لكنّ الخطأ الأكبر يبتدأ من طريقةِ تفكيره!

و حبّذا لو توقّفَ الأمرُ عندَ حادثة ..
هؤلاءِ الأشخاصُ كُثُر ..
و لم يتوقّف دنيءُ تفكيرهم و فعلهم عندَ النسوة و الفتياتِ المراهقات ..
جشعاً قادتهم شهوتهم للاعتداءِ جنسياً على أطفال!

حدثَ من بينِ كلّ ما حدث أنَّ طفلاً راحَ يلعبُ في الشارع

مع أولادِ الحي.
يلعبُ الغميضةَ مع باقي الأطفال، منهم مَن كانوا في الخامسةِ مثلهُ و منهم مَن أكبرُ أو أصغر.
اختفى عن أنظارِ الأطفال مختبئاً في أحدِ الزوايا ..
ما كانَ لأحدٍ أن يعلمَ أنّهُ سيختفي للأبد!
بمعنىً أصح ..
سيختفي كونهُ على قيدِ الحياة للأبد!
انتهت أمّهُ من طهوِ الطعام و راحت لتحضرهُ فلم تجده.

سألت الأطفالَ و الأهالي و المارة. طرقت بيوتَ الحي و الأحياءَ المجاورة و لكن عبثاً لم تتوصّل لما يهدّأ قلقَ قلبها.

متى، و كيفَ و لماذا اختفى؟

لا أحدَ يعلم!

جُلَّ ما في الأمر أنّهُ لم يعد موجوداً واقعاً، بل إنّما دائماً يسيرُ في حنايا أفكارها!

قد كانَ ملاكاً على الأرض فأساءت معاملتهُ الذئاب ليصبحَ عصفوراً في الجنّة!

أو أنّهُ كانَ عصفوراً على الأرض و عندما افترستهُ الذئاب رحلت روحهُ الطيّبة لتكونَ ملاكاً في الجنّة؟!

ملاكاً أم عصفوراً، لم ترحم الذئابُ أحداً!

تبقّى لها أيامٌ منَ العمر ليقولوا لها: "هنيئاً قد وجدنا طفلكِ" ..
و لكن أيّ أيامٍ ستكونُ هيَ منَ العمر عندما أكملوا:
"لكنَّ البقيةَ في حياتكِ"
أيُّ بقيةٍ في الحياةِ تلكَ تريدها؟
أَ هيَ حياةٌ التي ستكملها؟!
أسيرةٌ هي ما بينَ حنايا التاءِ المربوطةِ في تلكَ الحياة ..
ألا قد يحينُ الوقت لتفلتَ التاءُ عقدتها و تتحرّرُ هي ملاكاً فتلتقي بطفلها؟!

ما كانت دموعها تهدأ، و كلُّ دمعةٍ كانت تسرقُ مئاتَ نبضاتِ القلبِ من عمرها!
"أخبروهُ أنّني لا زلتُ على قيدِ الحياة إذا ما كانَ يريدُ زيارةَ أحلامي .. و أخبروهُ أنّ ذلكَ لن يطول، و لذا فليتهيّأ

لزيارتي الأبديةَ بجانبه„

ما آلمها حقاً و آلمَ أباهُ هو الحالُ الذي وجدوا ابنهم عليهِ متوفيّاً!

هزيلُ الجسد، شاحبُ الوجه، جسدٌ مليءٌ بالكدمات، ملابسُ تغطّيها

الدماء و لا سيّما بنطاله، خدّانِ طاهران بعطاءِ دموعهِ و غيرها

وصفٌ لم يقوَ كلا الوالدين على رؤيتها.

طبقاً للطبيبِ الشرعي، قد تعرّضَ الطفلُ للعنف ..

و قد تعرّضَ للاغتصاب من قبلِ ثلاثةِ رجالٍ قد تمّ التعرّفُ عليهم

فيما بعد!

كيف؟ ..

تمّت الإجابةُ عنها!

متى؟ ..

خلالَ يومين متتاليين من تاريخِ اختفائه!

لماذا؟ ..

تفكيرٌ تافهٌ مريض لا يشغلهُ إلا متعةٌ جنسية!

أين؟ ..

في مكانٍ ما و من ثمّ تمّ إلقاءُ الجثةِ قريباً من أحدِ المعامل!

عندما تحدّثنا في هذا يا شوق بكيتِ كثيراً حتّى بكيتُ معكِ.

سألتني:

„يقتلون ..

يتصرّفونَ على غيرِ المألوف ..

يفعلونَ ما هوَ شاذٌ عن المنطق ..

لقد افتعلوا الحربَ و أكملوا بها ..

لِمَ لم بكملوا بطريقةٍ إنسانية؟„

أجبتكِ عندها:

„و هل القتل، الشاذُ عنِ المنطق و الحربُ تعدُّ أموراً إنسانيةً

منَ المنطلقِ يا شوق؟!„

عزيزتي شوق!

لم أشأ يومها أن تزدادي حزناً و إلّا لكنتُ أخبرتكِ بما قد جالَ في رأسي.

قد عادَ ذاكَ الطفلُ جسداً معتدىً عليه ..

و لكنّهُ عادَ ليغسّلهُ أباه، تبكي على كفنهِ أمّه و يضعَ كلا والديهِ الأزهارَ على قبره ..

قد عادَ يا شوق! ..

غيرُ أطفالٍ تعودُ منهم جثثٌ متعفّنة ..

و غيرُ أطفالٍ تعودُ منهم جثثٌ ما هي إلّا بقايا جسد، ذاكَ بعدَ أن تمّت تجارةُ أعضاءِ جسدهم.

هل هذا إنساني من منطلقهِ يا شوق؟

أطفالٌ أخرى تذهبُ و لا تعود ..

نعم، تذهبُ على غيرِ عودةٍ أو خبرٍ عنها حتّى!

عائلاتٌ ماتَ الأملُ لديها من كثرةِ الانتظار ..

عائلاتٌ ماتت قبلَ أن يموتَ أملها ..

عائلاتٌ ماتت و أملها معاً ..

و عائلاتٌ كثيرة لا زالت قيدَ الانتظار!

قلبي مقدّس ..

لأنّكِ تسكنينهُ ..

فأنتِ للحبِّ قِبلة!

يا شوق!

يا عزيزتي!

يا قافٍ و لامٍ و باءٍ تخصّني!

قد قرأتُ اليومَ عبارة: „هل جميعُ الطرقِ تؤدّي إليكِ أم

أنّني لا أعرفُ سوى طريقكِ؟„

ذكرتكِ حينها، أردتُ أن أفكّرَ بذاكَ السؤال و لكن قوةً

ما جعلتني أغلقُ الكتاب و أقول:

„أيُّ سؤالٍ هذا؟

جميعُ الطرقِ تؤدّي إليكِ لا محالة!

بل إنّما الطرقُ جميعها هي أنتِ!„

عندما أخبرتكِ بذلك ضحكتِ ضحكتكِ الجميلة التي أعشقها

و قلتِ:

- و ماذا بعد معَ الكتبِ و القراءةِ يا ريم؟
- أريدُ أن أقرأ إلى حينِ أموت!

مجنونةٌ ما كنتُ أعرف أنّ مَن يقرأ لا يموت!

- أحبكِ كثيراً حينَ تقرئين، و مع كلِّ كتابٍ تقرئينهُ تزدادينَ جمالاً!
- أحبكِ جداً ابتداءً بالهمزة، إطالةً في الحب لأبعد

من المجرات و بعدها انتهاءً بالتنوين!

- أضيفي على الحبِّ شعراً و فلسفةً كي أزدادَ أنا جمالاً!
- إنَّ حبّي لكِ قوةٌ و ضعف!
- كيفَ هذا؟
- حبّي لكِ يمنحني القوة لمجرد تواجدكِ في روحي دائماً و تراقصكِ مع أفكاري على "أصحو" و "أغفو" و الأغنيةَ بينهما ..

و لكنّكِ أيضاً نقطةَ ضعفي التي أنا على استعدادٍ أن أخسرَ الكثيرون و كلّ البلدان لأجلها .. و ضعفي الحقيقي الذي سأشعرُ به إذما خسرتكِ!

- إنّني أشتاقكِ جداً!

- عساهُ قلبكِ يهدأ قريباً بلقاءِ قطعةٍ منكِ تشتاقكِ بينما تحادثكِ الآن!

يا حبيبةَ القلب و عزيزةَ الروح!
قد أرسلتُ لكِ رسالة، لا تردّي عليها برسالةٍ أخرى!
رُدّي عليها بلقاءٍ منكِ و لو حلماً!

قد وهبنا الله قلباً ليضخَّ مشاعر ..

و قلبي لا يضخُّ إلّا شوقاً ..
شوقاً يبتدأ بكِ و ينتهي بالدعاءِ بلقياكِ!
„اسكت يا قلبي، كفاكَ شوقاً!„
لكنّهُ لم يهدأ؟
„دعكَ منَ الأشواقِ يا قلبي و سأشتري لكَ قلباً سعيداً عمّا قريب ..

لكنّهُ لم يرأف بي!

„توقّف عن الأشواقِ يا قلبي كفاكَ تعذّبني!„

لكنّهُ لم يهدني رحمةً أو إخلاءَ سبيلٍ مؤقّت!

هديةٌ منَ الحبِّ لنا هي هذي القلوب و كثيراً ما ندفعُ ضريبتها أشواقاً!

أيُّ ضريبةٍ هذهِ لا منافسَ لها؟!

حتّى الأملُ راحَ يزيدنا أشواقاً!

ليتها هذي القلوب تصبحُ مطيعةً و تستجيبُ لنا عندما نطلبُ منها أن تتوقّفَ عن ضخّ هكذا مشاعر!

لِمَ الشوقُ ليسَ شعوراً، بل مشاعر؟

و لِمَ الحبُّ ليسَ شعوراً، بل مشاعر؟

و لِمَ الفخرُ ليسَ شعوراً، بل مشاعر؟
و لِمَ الإيمانُ ليسَ شعوراً، بل مشاعر؟
و لِمَ القلبُ يضخُّ بدلَ شعورٍ فقط .. مشاعر؟١

لأنّهُ ما مِن شعورٍ قد خُلِقَ حراً!
لكلّ شعورٍ على الأقل جناحين و إلّا يموتُ أسيراً!
لأنّهُ ما مِن شعورٍ قد خُلِقَ وحيداً!
لكلِّ شعورٍ على الأقلّ بتلات و إلّا يكونُ منبوذاً!

لا أحدَ بإمكانهِ أن يحيا وحيداً، كلٌّ منّا كاميرا و تحتاجُ إلى عدسةٍ تصوّرُ لها جمالَ الحياة، و كلٌّ منّا عدسةٌ تصوّرُ جمالَ الحياة لإحدى الكاميرات!
لا هي الكاميرا تنفعُ بلا عدستها، و لا هي العدسةُ تساوي شيئاً بلا الكاميرا.
خلقنا لنكمّلَ بعضنا ..
و هكذا هي المشاعر!

عندما تناقشنا في هذا أجبتِ يا شوق:

- كم أحبّكِ يا ريم لأنّكِ تكمّلينَ قطعةً من روحي!

- لا يا شوق .. حاشاني أن أكمّلَ جزءاً من روحك!
أنتِ روحٌ عذبةٌ كاملة!
- أنا البستانُ الفسيح الذي لا يساوي شيئاً بدونكم
يا أزهاره ..
- بل أنتِ الجنّةُ يا نعيمنا!

_____

في الصباحِ التالي، اتصلتِ لتطمئنيني عليكِ. قلتُ متلهفةً:

- صباحكِ يا جنّتي الثانية!
اشتقتكِ!
- صباحكِ يا ملاكاً تحبّهُ الجنّة، كيفَ هي جنّتكِ الأولى؟
- بخير و تشتاقكِ كثيراً أيضاً!

أشواقي و أشواقها تزدادُ كلّ يومٍ لكِ!

لقد بتِّ في قلبي أكثرَ من قلبي في نفسه!

- أوصلي سلاماً لجنّتكِ الأولى و أخبريها التالي:

„و روحي تحتاجكِ سكراً لتكونَ عذبة„

و لا تنسي أن تذكري أنّ هذهِ العبارة أرسلها قلبي لها.

أخبرتها أمي حينها فقالت لي أكثرَ عبارةٍ أعشقها ..

تلكَ العبارةُ التي تجعلُ لقلبي أشعةً من نور ..

تلكَ العبارةُ التي تمنحُ حاضري و مستقبلي الضياءَ و تحميني من كلّ عتمة!

تلكَ العبارة التي جعلت من ماضيَّ سماءً تملؤها نجومٌ تنيرُ فرحاً، خيراً، ثقةً و فخراً!

تلكَ العبارةُ التي تذكّرني أنّ أمي تؤمنُ بي و تحفّزني أن أؤمنَ بنفسي و بما أفعل ..

إيمانها هو أعظمُ ما يحدثُ لي في حياتي!

إيمانُ شخصٍ عزيزٍ بك هوَ أعظمُ ما قد يكون!
ابتسمت أمّي بعدَ أن أخبرتها بكلّ ما حدث و قالت العبارةَ
الأعظم „الله يرضى عليكِ„
و رضاكِ أمّي هو طريقي للجنّة ..
و أمّا الجنّة فهي أنتِ ..
فليبارك كلُّ طريقٍ يبتدأ و ينتهي بكِ!

ثقةُ المرءِ بالنجاح كما ظلّه ..
شخصٌ بلا هذي الثقة هو إنسانٌ بلا ظل!
أَ يعقلُ أن يكونَ هناكَ مرءٌ بلا ظل؟

حتّى بيتر بان تمكّنت ويندي من أن تخيطَ ظلّهُ ليلازمهُ
دائماً!
أمّا أنا فقد خاطت لي أمّي ظلّي عن طريقِ عبارةِ
„الله يرضى عليكِ„!

و يحدثُ نادراً و لكن كثيراً أن يهبنا الله نعمةً عظيمةً على هيئةِ شخصٍ في حياتنا ..

شخصٌ يعدُّ نعمةً تحصى من نِعَمِ الله التي لا تعدُّ و لا تحصى ..

و لكنّ هذه النعمة تحملُ معها جمالياتٌ و رزقٌ عاطفي و إنساني لا يعدُّ و لا يحصى!

نعمةٌ بإمكاننا إخبارها أيّ شيء دونَ أن نندمَ أو نعتقدَ بأنّها قد تفهمنا بشكلٍ خاطئ ..

نعمةٌ بإمكاننا أن نبكي و نستخدمَ قلبها منديلاً ..

نعمةٌ بإمكاننا أن نجعلَ من ضحكتنا و ضحكتها أغنيةً تحتَ عنوان "السعادةُ هنا".

ما كلُّ حضنٍ بإمكاننا أن نرشَّ عليهِ عطرَ دموعنا الصادقة، و ما كلُّ يدٍ بإمكانها أن تمسحَ تلكَ الدموع لترشَّ عطرَ ضحكة!

و أحياناً كثيرةً لا نحتاجُ نصيحة، أو حتّى عبارة "ستكونُ الأمورُ على ما يرام" ..

أو ربّما "قريباً تزهرُ بتلاتُ الأمل" ..

يحدثُ أن نكونَ بحاجةٍ فقط لمن يسمعُ و يقول "نعم، أشعرُ كم هو صعبٌ ما تمرُّ به"!

و مَن يحبوننا بحق، هم فقط مَن بإمكانهم معرفةَ التعبيرِ و الوقتِ المناسبين ..

أولئكَ الذينَ يطرحونَ سؤالَ إذما كنّا بخير عندما يشعرونَ مسبقاً بحزنِ الإجابة ..

أولئكَ الذينَ يملكونَ الإجابةَ و دواءها ..

ما هم بحاجةٍ للدواء، فكلماتهم تفعلُ ما عجزَ الطبُّ و السحرُ عن فعله!

و قد يحدثُ أن تؤثّرَ فينا الكلماتُ التي نسمعها من عزيزٍ علينا أكثرَ ما قد أثّرت بهِ الحادثةُ التي جعلتنا فرحين أو حتّى حزينين!

أذكرُ أنّهُ تمَّ عقدُ اجتماعٍ لأولياءِ الأمورِ في المدرسة. كلُّ طالبٍ
و والديهِ على حدا. كانَ ذاكَ لأجلِ مناقشةِ تقدّمِ الطلاب
و سرعةِ تطوّرهم. قد كنتُ سعيدةً بما سمعتهُ، سعيدةً
جداً. لكنّ كلمةَ أمّي في نهايةِ الاجتماع جعلت مشاعري

تتّخذُ منحىً آخر. قد مانت كلماتها أشدُّ تأثيراً عليَّ منَ الاجتماعِ
نفسه. لو يحدثُ أن أسمعَ تلكَ الأغنيةُ القصيرة المؤلّفة من
عبارةٍ واحدة ..
لو يحدثُ أن أسمعها بترتيلةِ صوتِ أمي العذبة كلّ دقيقة!
قد قالت عندها "أنا فخورةٌ بها". قد كنتُ قبلَ هذي العبارة
أقطفُ ورداً من بستانِ السعادةِ و أزرعها على شفتيّ.
لكن عندما سمعتُ تلكَ الترتيلةُ الفريدة صارَ البستانُ
كلّهُ ملكي. حتّى أنّ نجومَ الفضاءِ كلّها اتّسعت في عينيّ!
يا لجمالِ مشاعري تلكَ اللحظة ..
و يا لها من نعمةٍ أعشقها أمي!

أذكرُ يوماً أن كنتُ حزينةً حقاً. قد كنتُ على إيمانٍ بربٍّ كريم أنَّ كلَّ الأمور ستحل. كنتُ على أملٍ بمستقبلٍ جميل، فيهِ كلُّ الأمور ستكونُ أفضل. ما كنتُ أريدهُ حقاً هو أن أبكي، لكنّني حاولتُ جاهدةً ليلةً و نهار بأكملهما ألّا أفعل. كنتُ أريدُ البقاءَ على حالِ البنتِ القوية التي يستمدُّ غيرها قوّتهم منها و من ضحكتها الدائمة!

لا يحقُّ للجميع أن يعرفوا ما يحدثُ معنا في حياتنا، لكنّ الأوفياء يستحيلُ عليهم أن يكذبوا!

حدثَ أن قالَ لي أحدهم، نجمةٌ مضيئةٌ في مساحاتِ روحي، جملتينِ فقط جعلتا دموعي تتحرّرُ منَ السجنِ الذي أطبقتهُ عليها في عينيّ. راحت مشاعري فراشاتٍ تحلّقُ مهنّئةً و مودّعةً الدموعَ في آنٍ واحد.

قد قالت تلكَ النجمة: „أشعرُ أنّكِ لستِ بخير، لن أضغطَ عليكِ بأن تخبريني ما يحدث. سأكونُ هنا عندما تحتاجين، و لتعلمي أنّكِ فتاةٌ قويّة!„

قرأت عيناي تلكَ الكلمات و راحتا تعطي إخلاءَ سبيلٍ لكلّ الدموعِ السجينة!

أيُّ نجمةٍ نادرةٍ قد كانت تلك لتنتقي كلماتها بدقّة؟!

قد قالَ جلالُ الدّين الرومي:

„نحنُ بقعٌ من عتم لولا نورُ الله فينا„

و أمّا ذاكَ النّور فقد أنعمهُ الله علينا عن طريقِ نجومٍ مضيئةٍ تزيّنُ أرواحنا على شكلِ قطعةٍ منّا، حبيبٍ أو صديق!

أخبروا النوايا الحسنة أنّ قلوبنا لا تزالُ على

قيدِ الحياة، فلتبقى في ضيافتنا و لا ترحل!

أَ تدرينَ يا شوق أنّكِ لا زلتِ متألّقةً في عينيّ رغمَ
بشاعةِ الحرب؟
رغمَ عتمةِ حزنكِ إلّا أنّكِ لا زلتِ فريدةً متألّقة!
أحبتني عندها؛

- لربما قد باتَ الأسودُ يليقُ بي؟
أَ تعتقدينَ أنّني سأخلعُ الحدادَ يوماً؟

- لستُ أعتقد بل إنّني على يقين، و حتّى ذلكَ
الحين ستبقينَ قمراً يُنيرُ رغمَ عتمةِ الحزن
و بشاعةِ الحرب!
جلاءُ الحزنِ عن قلبكِ، كم أتمنّاهُ قريباً!
ليتهُ كانَ الحزنُ لقلبي أنا و لا قلبكِ أنتِ!

- حفظكِ الله لي من كلِّ شرٍ أو حزنٍ يمحي جمالَ
ضحكتكِ.

كرّرت تلكَ الموسيقى نفسها إلى حينِ غفت عيناي. استيقظتُ

في اليومِ التالي على موسيقى أعذب.

- صباحكِ فرحٌ يليقُ بكِ يا حبيبتي!

صباحُ الوردِ الذي نعمت رائحتهُ بالاقترابِ منكِ ..

صباحُ العصافيرِ التي تلت أُولى نغماتِ صباحها على

مسامعكِ .. صباحكِ قطعةٌ منكِ تشتاقكِ الآن!

- صباحكِ أفراحٌ، ريم عزيزتي!

كلماتكِ تجبرني أن أحبَّ الصباح ..

تجعلُ من صباحي أكثرَ عمقاً، حباً و دهشة ..

كما لو أنَّ فاءَ الفرحِ تبدأ مع صباحكِ ..

كما لو أنّ نورَ الشمسِ يطلعُ عندما أسمعُ

كلماتكِ!

كم مرّةً عانقتُ قلبك اليوم؟

- و لا مرّة!

لأنّكِ عانقتهِ منذُ عرفتكِ و لم تفلتيهِ أبداً!!

احزري ما خطرَ في بالي الآن؟

- هاتي ما عندك ..
- هناكَ أشخاصٌ يعلّموكَ كيف تحبّهم ..

و هناكَ أشخاصٌ قد أحببتهم أساساً من أوّلِ

لقاءٍ أو حتّى كلمة..

لم أحتج منكِ كلمةً حتّى أحبّكِ، كانَ يكفيني حرفاً!

- أَ تذكرينَ أيّ حرفٍ كان؟
- كانَ أوّلَ حرفٍ في أبجديةِ عشقي اللا متناهية لكِ ..

كانَ حرفاً يعادلُ كلّ الحروفِ التي تعرفها البشرية ..

كانَ حرفاً ألفظهُ بالقلبِ لا بشفتيّ ..

حرفاً يتّسعُ لكلّ الهوى ..

- بعضُ الهوى لا يقبلُ التأجيلا، هاتي عناقاً يُنسيني أبجديتي!

_____

تُراها الإنسانيةُ عرجاء أم أنّ الطريقَ لقلوبِ بعضنا قد باتَ أعرجاً؟

لا أدري ما شعرتُ بهِ عندما قرأتُ عن هذي الحادثة!

أَكانَ استهزاءً بطريقةِ استغلالِ البعضِ للإنسانية ..

أم حزناً على الإنسانيةِ المستهزأ بها ..

أم ربّما شعرتُ بإنسانيةٍ تجاهَ مَن استُهزئ بإنسانيتهِ استغلالاً؟!

قد كانَ طبيباً ذا قلبٍ كبير، يتمنّى العصفورُ أن يحطَّ على أغصانِ إنسانيته. لا أذكرُ اسمهُ و لا اسمَ المشفى التي كانَ يباركها بعمله.

لا بأسَ بنسيانِ التفاصيلِ أحياناً إذما كانَ نسيانها لن يبعثرَ
الخطوات نحوَ النهاية!
ركضت طفلةٌ نحوهُ مسرعةً بكلِّ حبٍ و لهفة. أحاطتهُ و مريولهُ

الأبيضَ بذراعيها.
ضمّتهُ مع عمقِ تنهيدةٍ و أحرفٍ حنونةٍ كانت تندهُ "بابا ..
بابا"
داعبَ خصلاتِ شعرها بينما حاولَ أن يفهمَ ما يحصل ..
متى أنجبَ هذي الفتاة و متى نسيها؟
أَ هوَ من فقدَ الذاكرة أم كانت هي مَن فقدها؟!
لا بأس، أن يفقدَ المرءُ ذاكرتهُ خيراً من أن يفقدَ إنسانيتهُ
و مبادئه!
ركضت نحوهُ امرأة، سحبت ابنتها التي رفضت إفلاتَ أبيها
و بدأت توضّحُ ما يحدث. همست لهُ أنّهُ يشبهُ أباها الذي
استشهدَ و الذي تشتاقهُ جداً. طلبت منهُ أن يحضنها دقيقةً

و من ثمّ يودّعها.

وافقَ دونَ تفكير ..

كلَّ بتلةٍ في روحهِ كانت تندهُ إنسانية!

حضنها، داعبَ خصلاتِ شعرها، طبعَ قبلةً على رأسها و أخبرها أنّهُ سيعملُ الآن و سيأتي البيتَ مساءً.

فرحت جداً .. عانقتهُ بعمقٍ و راحت و أمّها مودّعة!

كانت تخطو على الأرضِ مبتعدةً عنهُ و كانت دمعاتهُ تخطو على خدّيه.

إلى ذاكَ الشخص ..

أيُّ فضاءِ حنانٍ أنتَ؟!

راحَ إلى غرفتهِ ليمسحَ دمعاته، يربّتَ على قلبهِ و يستعدَّ للعمليةِ القادمة.

وضعَ يدهُ في جيبهِ فإذ بهِ لا وجودَ للهاتفِ الجوّال و لا لمحفظتهِ

بكلِّ ما فيها من نقودٍ و أوراق!

لقد ركضت نحوهُ تلكَ الطفلةُ مسرعةً و لكن بكلِّ حبٍّ
و لهفةٍ مزيفَين!
أحاطتهُ بذراعيها و تنهّدت بعمقٍ إعلاناً للسرقةِ التي خطّطت لها هي
و والدتها.
لقد استغلّت هي و أمها إنسانيةَ ذاكَ الطبيب لمنفعةٍ
ماديّة!
قد يكونُ أنّهما كانتا بحاجةٍ للسرقة ..
و لكن تلكَ السرقاتُ التي تحدثُ على مرأىً منَ العين، و القلبُ
أكبرُ الحضور، تعدُّ جريمةً بحقّ المشاعر ناهيكَ عن كونها جريمةً
بحقّ الإنسانية!

هو لم يحزن على ما حدث ..

فهو لم يخسر شيئاً يُذكر سوى دمعاته ..

لا بأس ..

لأنّهُ طيّبُ القلبِ عليهِ أن يعلمَ أنّ أمثالهُ يُخسرونَ

لا يَخسرون!

و كيفَ أنّهُ على رغمِ المسافاتِ ما بيننا أزدادُ قرابةً منكِ ..

أَ هذا لفرطِ ما أحبكِ ..

أم أنّهُ لفرطِ الحبِّ فيني لكِ؟!

أجيبيني يا شوق!

إنّني أفتقرُ للعطر ..

أفتقرُ للياسمين ..

أفتقرُ لحضنكِ بمعنىً آخر!

هاتفتكِ مساءً لأتمنّى لكِ واقعاً جميلاً و أحلاماً سعيدة ..

شعرتُ بكِ كم كنتِ حزينةً ..
حاولتُ ترميمَ تلكَ الانكساراتِ التي تبدو في صوتكِ ..

عبثاً حاولتُ جعلكِ مبتسمةً ..
لقد كنتِ حزينةً حقاً!

إيّاكِ أن تنامي حزينةً فالأحلامُ تنتظرُ قدومكِ لتكونَ ضاحكةً ..
و إيّاكِ أن تبدئي صباحكِ حزينةً فالشمسُ تنتظرُ ضحكتكِ لتشرق ..
نجومُ الليل تملؤ أعماقها بالفائضِ من نورِ ضحكتكِ ..
و ألحانُ فيروز تأخذُ إذناً من ضحكتكِ لتبدأ تراقصاً على مسامعنا ..
لستُ أطلبُ الكثير و لكنّكِ تعنينَ لي الكثير ..
إيّاكِ فقط أن تكوني حزينةً!

كاذبةٌ كنتُ عندما قلتُ أنّكِ تعنينَ لي الكثير!

أنتِ لستِ أحدهم ..

و لستِ تعنينَ لي الكثير ..

بل إنّما ..

تعنينَ لي ..

كلّ شيء!!

كم هي الصباحاتُ الحلوة تليقُ بكِ!

و كم هيَ المساءاتُ الحلوة تليقُ بكِ!

و كم أنّكِ تليقينَ بقلبي!

لا وجودَ إلّا لـ "أنتِ" واحدة في قلبي ..

و هذا الوجودُ لستُ أهبهُ إلّا لكِ أنتِ ..

أنتِ، و ستبقينَ أنتِ مهما تعدّدت الأزمانُ و الأماكنُ

و الظروف!

أَ سمعتِ يوماً يا شوق بالنظريةِ النسبية؟

تلكَ التي بدأها آينشتاين؟

„لا زمانَ بلا مكان ..

و لا مكانَ بلا زمان„

ما يختلفُ و يعدُّ نسبياً هوَ نظرتنا للأمور!

لنبدأَ على سبيلِ المثال مع الغربة!

و دعينا قبلَ أن نبتدأ أن نعطي حالةً تلخّصُ كثيراً منَ حالات!

المكان: سوريا

الزمان: النظرية النسبية: الغربة

يُحكى أنّ أحداً منَ الكثيرين عانى في الحربِ بما لا تطيقهُ الجبال. ما مِن كمينٍ إلّا و نصبتهُ الحربُ لهُ!

ما تركت فقراً، مرضاً، ترحيلاً، موتاً إلّا و حضّرتهُ لهُ بعناية!

ذاكَ أنّني لم أذكر المشاعرَ اليائسة، الأملَ المفقود و الفواجعَ

التي شاهدها غيرَ التي عاشها شخصياً!
في منظورِ مَن في الخارج فهو يعدُّ مسكيناً، مظلوماً، عديمَ الحيلةِ و قد نالت الحربُ منه.
كانَ ذنبهُ أنّهُ يريدُ لحقوقهِ كإنسانٍ أن تصيرَ واقعاً!
رَكِبَ أمواجَ البحر و ياما تركَ خطاهُ على أرضِ بلدان ..
تلكَ الخُطا الممزوجةِ خوفاً و ذعراً ..
في منظورِ مَن في الداخل فهوَ يعدُّ متمرداً، خائناً، انتهزَ الفرصةَ ليتركَ الحربَ و الوطنَ وراءهُ، راحلاً نحوَ السلامِ الفردي، متناسياً وطنهُ!

أَ ترينَ يا شوق!
الزمانُ و المكان مرتبطانِ ببعضهما، و لكن رغمَ بشاعةِ الظروف لا زالَ بعضنا لا يفكّرُ بإنسانيةٍ.
المظلومُ من منظورِ أحدنا يعدُّ متمرداً من منظورِ أحدنا الآخر!

حتّى الموتُ صارَ نسبياً في فاجعةِ الحرب ..
و حتّى الحياةُ كذلك!
الموتُ يُعدُّ فقداناً لروحٍ أحببناها، و لكن في ظروفِ الحرب
باتَ الموتُ يعدُّ راحة!
تعدّدَ الأموات، تعدّدت الضحايا و تعدّدت الأسماء ..
و لكنّ العبارةَ التي باتت الأكثرَ شيوعاً هي „رحمهُ الله،
ماتَ و ارتاح„!
تخيّلي يا شوق أنَّ الدعاءَ على أحدهم بالموت قد باتَ دعاءً
محبّباً ..
دعاءً يمنحُ الأملَ بالسلامِ المخلّدِ القريب!
أجل، لا تستغربي، هكذا صارت هي الأمور!

حتّى الحياة كذلكَ الأمر، قد باتت نسبيةً ..
أي أنّ صرخةَ الفرحِ التي كانت تطلقها الأمُّ عندَ مخاضها،
قد صارت صرخةَ قلقٍ من مسؤوليةٍ جديدةٍ قادمةٍ للحياة

و قد يكونُ لها من فواجعِ الحربِ حصةً كبيرةً!
حتّى ترابُ الوطن قد صارَ نسبياً ..
أي أنَّ الترابَ الذي يمشي الكثيرونَ عليهِ و يعدُّ أرضاً ..
هناكَ الكثيرونَ الذينَ ينامونَ تحتهُ و يعدُّ لهم سقفاً!

عندما كانَ يحملُ بندقيةً و يقاتل قد كانَ موقفهُ نسبياً
أيضاً ..
أي أنّه إن قَتلَ فهذا أمرٌ نسبي ..
و إن قُتل فذاكَ الأمرُ نسبيٌ أيضاً!
عندما يَقتل، قد يكونُ بطلاً أو قد يكونُ مجرماً ..
و عندما يُقتل، قد يكونُ ضحيةً و لربّما شهيداً أو قد يكونُ
شخصٌ حلالٌ و نصرٌ للمرءِ قتلهُ!
أَ تفهمينَ ما أعنيهِ يا شوق؟

حتّى رغيفُ الخبزِ قد صارَ نسبياً ..

أي أنّ رغيفَ الخبزِ الذي يعدُّ مكمّلاً لغذاءِ أحدهم أو ربما
ليسَ ضرورياً حتى ..
هو ذاتهُ الرغيفُ الذي يعدُّ حياةً لمعداتٍ كثيرةٍ خاوية!

لا تفكّري بعيداً يا شوق ..
الحربُ ذاتها، أي أنّ الزمانَ ذاتهُ يعدُّ نسبياً!
فالحربُ منفعةٌ للبعض، و لكن فاجعةٌ بالنسبةِ للكثيرين!
سوريا ذاتها، أي انّ المكانَ ذاتهُ يعدُّ نسبياً!
فسوريا فريسةُ احتلالٍ بالنسبةِ للبعض، و لكن وطناً بالنسبةِ لكثيرين!

و في الحديثِ عنِ النسبية، لقد تذكّرتُ مثالاً مناسباً لها.
قد قامَ عبدةُ الحربِ بخطفِ إحداهنّ، لم تكن الوحيدةَ إلّا أنّها
المثالُ الذي سأضربهُ الآنَ لكِ يا شوق.
بعدَ انتهاكاتٍ وحشيةٍ و عنفٍ مارسوهُ عليها أرادوا تحريرها ..
تحريرها نحوَ السّماء!

كانوا سيحرّرونها لمنفعةٍ لهم تؤولُ إلى إظهارِ مدى قوّتهم و سيطرتهم ..

و لكن هي الضحية!

ألبسوها حزاماً ناسفاً كي تفجّرَ إحدى المدارس ..

كانوا يريدونُ جيشاً منَ الملائكةِ أن يصعدَ لسمائهِ في آنٍ واحد!

ما كانت تملكُ خياراً ..

عليها أن تفجّرَ نفسها لا محالةَ!

لكن ما ذنبُ أولئكَ الأطفالِ الأبرياء؟

ما فعلتهُ هوَ أنّها فجّرت نفسها في المقرِّ ذاته عندما ألبسوها ذاكَ

الحزام الناسف ..

قد صعدت هي ملاكاً للسماء بسببِ نيّتها الطيبة و أمّا أولئكَ الشياطين

فقد ماتَ رمادهم أرضاً. حتّى أنّ الأرضَ شعرت أنّها بحاجةٍ للاستحمام

بعدَ أنّ ارتمت دماؤهم الفاسدة عليها!

في نظري تعدُّ تلكَ الإنسانةُ بطلةٌ لإنقاذها حياةَ أطفال!

لو أنّها فجّرت نفسها في المدرسة لكانت عندها خائنة و فعلها

عملٌ إرهابي ..
و لكنّها قد فجّرت أعداءً للوطنِ و الإنسانية و ما فعلتهُ يعدُّ
عملاً إرهابياً من منظورِ غيري لأنّهم على جهلٍ بما حصل!
لا يهمُّ ما قد قالوه و ما تناقلتهُ الأفواهُ و الأخبار ..
ما يهمُّ هوَ أنّها ماتت مرتاحةَ الضمير و لم تحمل ذنباً!
نحنُ في زمانٍ لا نثابُ فيهِ حسبَ النوايا ..
و ذاكَ أنَّ النوايا ذاتها تعدُّ نسبيةً نظراً لكوننا نجهلها و كثيراً
ما نسيءُ فهمها!

سأخبركِ بشيءٍ يا شوق و لكن رجائي لا تضحكي!
أو اضحكي فقد اشتقتها ضحكتكِ كثيراً!
هذي الحربُ النسبية جعلتني أدركُ أنّ اسمي يعدُّ نسبياً،
ديني يعدُّ نسبياً و حتّى حجابي يعدُّ نسبياً!
على الرغمِ من عشقي لاسمي، و الذي أشكرُ أمّي على حسنِ

اختيارها، إلّا أنّني لم أكن أنا مَن اخترتهُ!
يرى البعضُ حجابي فيحكمونَ على حياتي كاملةً. يحكمونَ على ١٨ عاماً عشتها و على حياةِ والديّ و أجدادي من خلالِ قطعةِ القماشِ

التي أرتديها.
و قطعةُ القماشِ هذه إذما فكّرنا فيها بعمقٍ، سنجدُ أنّهُ لا علاقةَ حتميّة لها بديني.
فلنعتبرها حريّةً شخصيّة، فالفتاةُ التي لا ترتدي الحجابَ عن قناعةٍ منها قد تشعرُ يوماً أنّهُ كانَ ظلماً لها أن ارتدتهُ يوماً.
عندما تنضجُ أفكارُ الأنثى عليها أن تختارَ الطريقَ المناسب لمسيرتها.
ظلماً قد تعيّنَ على طفلاتٍ في عمرِ السادسة أن يرتدينَ حجاباً!
ستلبسهُ ليصونها في الحياة و يحمي أخلاقها و شرفها، قد قالوا حينها.
ليست قطعةُ القماشِ التي تغطّي الرأسَ هي ما تحمي أخلاقها

و شرفها و تصونها، بل إنّما الإيمانُ الذي ستزرعونهُ في قلبها!
أنا الآن مقتنعةٌ بحجابي حدَّ نقيّ العظام، حتّى أنّني ما
عدتُ أراهُ قطعةَ قماشٍ، بل إنّما هديةً أكرمتها لنفسي لأحترمها
و أحترمَ نفسي.
و ما كلُّ فتاةٍ وضعت الحجابَ احترمته!
و في حينِ أنّها وضعتهُ فعليها احترامهُ و إلّا قد فقدت
أيضاً احترامها لنفسها.

ما مِن مسلمٍ بحق يكونُ إرهابياً، و ما كلُّ إرهابيٍّ يكونُ
مسلماً!
"السلامُ عليكم"
ليست تحيةً بالإسلامِ فقط ..
بل إنّما تحيّةً خاصةً بكلّ قلبٍ يندهُ سلاماً ..
و مَن أسلمَ وجههُ لله فلن يندهَ قلبهُ إلّا سلاماً!

يسمعونَ كلمةَ "إسلام" و لكن تصلُ إلى آذانهم كلمة "إرهاب".
ذاكَ الإرهابُ الذي يخافونُ حروفهُ، نخافُ نحنُ من مجرّدِ
أوّلِ حرفٍ منه!
لا يحقُّ لأحدهم أن يظلمَ كتاباً و يحكمَ عليهِ لمجرّدِ اسمه ..
و أمّا الإسلامُ فهو سلامٌ، لِمَ يحكمونَ عليهِ بطريقةٍ عنصرية؟
لا يمكنُ لأحدهم أن يحكمَ على لوحةٍ في الحينِ الذي سيبدأ
بوضعِ أوّلِ نقطةٍ فيها!
أَ مِنَ المعقول أن يحكمَ أحدهم على فيلمٍ من مشهدٍ واحد؟
لِمَ آلت بهم الحالةُ أنّهُ لا بدّ من كلّ مشهدٍ إرهابيّ أن يكونَ
مقطعاً من فيلمِ الإسلام؟
أَ يمكنُ لأحدهم أن ينطقَ ملايين، آلاف، مئات، عشرات، بل
إنّما فقط اسمين في كلمةٍ واحدة؟

بالطبعِ لا!
لِمَ يظلمونَ ملايينَ المسلمين إذاً و ينطقونَ كلمةً واحدةً
بدلاً عنهم، ألا و هي "إرهاب"؟
ما كانَ لنا ذنبٌ بمن أشعلَ فتيلةَ حربٍ أو إرهابٍ كي
نلامَ نحنُ!
قد كانَ البعضُ مَن أثاروا العاصفة كي نُلامَ في حالِ
الطقسِ جميعاً!
القرآنُ الذي أقرأهُ يقولُ أن نحب، نسامحَ و نتسامح ..
ما ذكرَ القرآنُ أن نقتلَ أو أن نقومَ بفعلٍ إرهابي ..
أنا أقرأ القرآن ليزدادَ النورُ في قلبي ..
أن أقرأهُ يعني أنّني مسلمة ..
و ما مُن مسلمٍ يعي ما يقرأ يمكنهُ أن يكونَ إرهابياً!

لِمَ يستخدمونَ مرآةً ليحكموا على ظواهرنا؟
عليهم باستخدامِ مرآةٍ تعكسُ الجمالَ الداخلي ..
مرآةً تعكسُ نقاوةَ الأرواح ..

أشهدُ أنّ أنقى الأرواح هي تلكَ التي زُرِعَ الإيمانُ و الحبُّ في بساتينها!

و يسألونهُ: هل للإيمانِ وجود؟

فيجيب: ها هي الوردة .. أروني عطرها!

فيستهزؤون: لا، لا يمكن .. إنّهُ فقط يجعلُ المرءَ مرتاحاً سعيداً!

يجيبهم بكلِّ قوّةٍ و ثقة: هكذا هو قلبي، كيفَ لي أن أريكم إيمانهُ؟!

الجميعُ يملكُ جسداً، قلباً، رئتين، عضلات، عظام، أنسجة و أعصاب ..

جميعنا عبارة عن كتلة، عن مادة!

و لكن ليسَ هذا هو السبيلُ كي نحكمَ على بعضنا الآخر، لأنّنا متشابهون في هكذا حالة!

و التشابهُ التام يؤدي إلى الملل ..

و الملَلُ بدورهِ يؤدي للنفورِ و عدمِ الرغبة!
السبيلُ الوحيد الذي يجعلنا نحكمُ على الناس هو الشيء الذي نختلفُ به ..
هذا السبيلُ هو الإيمان!
بماذا نؤمن؟ و ما الغاية من إيماننا؟!
الإيمانُ هوَ البذرةُ التي تجعلنا نكونُ و نصبحُ الوردةَ التي نحنُ عليها!

إنّهُ الإيمانُ ذاتهُ الذي يُنقذنا عندَ الضعفِ أو العجز ..
كم كانَ يقولُ مستحيلاً حتّى أنقذهُ الله من عجزه، فإنّما أمرهُ أن يقولَ –حتّى لما كانَ مستحيلاً– كن فيكون!

الإيمانُ و الحب هما أعظمُ ما قد يحدث، و هذا أنّ كلاهما منطلقٌ و مستقرٌ للآخر!
الإيمانُ يولّدُ حبّاً و الحبُّ ينتجُ إيماناً!

تعالي يا شوق نحرّرُ حقوقنا ..

تعالي نستعيدُ أملاكنا ..

تعالي نستعيدُ الحبَّ منَ الحرب و ندعها تتزحلقُ مع رائها المتبقيّة

إلى ما تحتِ السطور حتّى تنساها الأبجدية!

لا يكلّفُ الله نفساً إلّا وسعها ..

ألا إنَّ وسعَ نفسي أنتِ ..

فليكلّفني الله بكِ!!

افتتحتُ حديثي معكِ متسائلة: ما بكِ؟

أخفيتِ ما بكِ و أجبتِ: لا شيء.

- أَ أنتِ متأكدة؟
- لا ..

و لكنّكِ بعيدةٌ عنّي و ليسَ بإمكانكِ رؤيةَ دموعي

التي تنهالُ يومياً!

- لا! ..

بإمكاني أن أشعرَ بتلكَ الدموع فأنتِ في أعماقِ

قلبي مهما طالت المسافات!

أجيبيني، كيفَ حالكِ؟

- الحمدُ لله ..

و أمّا بعدَ "الحمدُ لله" التي كانت تجيبُ بها كم كانت تخفي

أوجاعاً و حزناً عميقاً!

كلٌّ منّا يعدُّ نجمةً مضيئةً رغمَ الحزن ..

نجمةٌ بإمكانها عندَ أيّ شوق، تنهيدة، كلمة او لحظة أن تفردَ

ضوءها، تتحوّلُ لغيمةٍ و تبدأ بالبكاء!

تباً للمسافات!

متى سيخترعونَ هكذا تكنولوجيا تمكنّنا من خطفِ عزيزٍ لنا، نعطيهِ

عناقاً عميقاً و من ثمَّ نعيدهُ إلى خلفِ الشاشة؟!

يكفينا من هذي التكنولوجيا ثوانٍ ..

فعناقُ الأحبّة الذي يعدّهُ الزمنُ ثوانٍ نعدّهُ نحنُ سرمداً!

لا تقلقي يا شوقي!

سوفَ ألقاكِ ..

ستسقطُ السين ..

الواو ..

و الفاء ..

و ستكتبُ الأحرفُ المتبقيّةُ سعادتي!

حتّى أنّ الخيرَ سيلقاكِ ..

الخيرُ قادم، فإغلاقُ الستائر لا يعني أنّ الشمسَ لن تشرق!

تسألينني عندها:

- كيفَ حالكِ؟

فأجيبكِ حزينةً لما يحصلُ معكِ:

- أنا بخير لولا أنتِ ..

و مع أنتِ لا يتسنّى لي إلّا أن أحيا كلّ الخير!

تشعرينَ كم أنّني ضائعةٌ بدونِ حضنكِ، و كم أنّني أتمنّى سعادتكِ، فتجيبين:

- أَ ليسَ بإمكانكِ أن تنسي التفكيرَ بي و لو لدقيقة؟

أجيبكِ:

- أستغفرُ الله على كلّ مرةٍ عاهدتهُ فيها أن أنساكِ و ما فعلت!

من أجمل أساطيرِ الحب أسطورة قيس و ليلى، روميو و جولييت و غيرها كثيرات. إحدى هذهِ الأساطير أسطورةُ إيزيس و أوزوريس. تبدأ تلكَ الأسطورة عندَ إيزيس و زوجها الذي يكونُ أخاها أيضاً، أوزوريس.

إيزيس، أوزوريس، نفتيس و ست هم الأولادُ الأربعة لآلهةِ الأرضِ و السماء، جب و نوت.

و لأنّها أسطورة فمنَ الطبيعي أن نعلمَ أنَّ أوزوريس تزوّجَ أختهُ إيزيس، و ست تزوّجَ أختهُ نفتيس و نكملَ الأسطورة وصولاً لنقطةِ الحبِّ فيها.

قد حكمت إيزيس و أوزوريس مصر بالعدلِ و الرحمة، و هذا ما جعلَ ست إله الفوضى و الشر يكرههما.

هناكَ أسطورةٌ واحدة تحتَ عنوان إيزيس و أوزوريس إلّا أنَّ طريقةَ روايتها تختلف.

قد كانَ الفراعنةُ المصريّون يخافونَ كتابةَ الأسطورة على

الجدران بأحرفهم و رموزهم خوفاً من نذيرِ شؤمٍ أنّ
الأحرفَ قد تحيا و تعيد الأسطورةُ نفسها!
الروايةُ الأكثرُ شيوعاً لهذهِ الأسطورة أنّ ست أرادَ من
شدّةِ شرّهِ و حقدهِ على أخيه أن يقتلهُ فنظّمَ حفلاً. وسطَ
الحفلِ كانَ هناكَ تابوتٌ كبيرٌ من ذهب.
على خداعٍ منهُ قالَ ست أنَّ مَن يتّسع التابوتُ له فسيكونُ
ملكهُ. قد كانَ ست صمّمَ هذا التابوت ليناسبَ مقاسَ
أوزوريس فقط.
راحَ أوزوريس يجرّب فأغلقَ أخوهُ عليهِ التابوت و أحكمَ إغلاقه.
ما توقّفَ الأمرُ هنا فقد رمى ست التابوتَ في النهرِ ليغرق.
و تقولُ إحدى الروايات أنّ ست جعلَ أوزوريس يسكر و من
ثمّ وضعهُ في التابوت و أغرقهُ.
لربّما لهذا يقولون تعدّدتِ الرواياتُ و الموتُ واحد!
تمكّنَ ست من تحقيقِ مسعاه و حكمَ المملكة، و لكن لم يطل
الأمرُ إلى أن انهارت المملكة بعدَ أن سادها الظلمُ و الفوضى!
عندما علمت إيزيس بالأمر راحت ترثي زوجها و تبحثُ عنه.

لربّما كانَ ممّا قالته:

فمالي و مالِ الأشواقِ في قلبي
ما هدأت منذُ عرفتكَ و لم أعرف لها سكونا
عاهدتكَ الله يا حبيبَ قلبٍ و روحٍ
عُد إليّ، فمنذُ فارقتكَ كم بكت عليكَ عيونا

لم تكن إيزيس قد سمعت بعد بشعرِ قيس الذي يقول:

و قد يجمعُ الله الشتيتينِ بعدما
يظنّانِ كلّ الظنّ أن لا تلاقيا

لكنّ إيزيس مع ذلك لم تدع الظنَّ يرسمُ نهايةً للحب!
راحت تبحثُ هنا و هناك إلى أن وجدت جثّةَ حبيبها الغريق. لكنّ الشرَّ و الحب عدوّان. أن وجدت إيزيس حبّها يعني أنّ شرَّ ست كانَ لينقضي. وَ ذاكَ ما دفعَ ست لتتبعها للقضاءِ على حبّها للأبد.
خطفَ الجثة و قطّعها ٤٢ قطعةً و جعلَ كلًّا منها في

منطقةٍ متفرقةٍ في أنحاءِ مصر كلها. و لكن لا يأسَ مع الحب!
راحت تبحثُ من جديد على أملٍ كبيرٍ بإيجادِ أجزاءِ جسدِ أوزوريس.
ليسَ لكونِ الروايةِ أسطورة و لكنّ المعجزاتِ في الحب قد

بدأت عندَ إيزيس و أوزوريس.
بعدَ إيجادِ ٤١ جزءاً منه، أخذت بهِ إلى إله السحرِ و الشفاء
لإحيائهِ من جديد. و قد تمكّنا باسمِ الحب أن يحيا معاً
لفترةٍ وجيزةٍ فقط!
مع أنّني لا أؤمنُ بالأساطير إلّا أنّني لأجلِ غايةٍ سأصدّقُ
هذهِ الأسطورة!
سأجدُ سبيلي إليكِ يوماً و ستعيدينَ بقربكِ لي الحياة!!
قد ورثت إيزيس قلبَ أوزوريس بعدَ وفاته فهو لم يعرف
الحبَّ إلّا بها.
يا شوق ..
لا حاجةَ لكِ أن تنتظري إلى حينِ موتي و تنفيذِ وصيّتي ..

و أنا على قيدِ الحياة قد ورثتِ قلبي!

وطني يحترقُ يا شوق ..

لا أريدُ لعينيّ أن تُبصرا خرابَ الوطن ..

ألا يمكنني أن أجرّبَ دورَ العمياء؟

أَ تعلمينَ يا شوق ..

في قضيةِ الدخان ..

الشابُ لمحبوبتهِ كما الوطن ..

و ما مِن فتاةٍ تحبُّ وطنها تريدُ لهُ أن يتأذى أو يحترق!

إنّني أحاولُ نسيانكِ ..

حاولتُ ألّا أشتاقكِ ..

و لكن تباً لقلبي كم تمردا!

قد كانت سبلكِ لدخولِ قلبي كثيرةً و الآنَ بعدَ أن افترقنا

لستُ أجدُ لكِ سبيلاً واحداً لتخرجي!

لا مفر

لا سبيلَ لي لنسيانكِ!

قلبي الذي أحملهُ بينَ ثنايا روحي لا ينفكُّ يذكركِ!

و هكذا كلّما خفقَ قلبي تذكّرتكِ ..

أَ أخبريني، ما هوَ السرُّ الذي يجعلهُ لا يندهُ إلّاكِ؟!

من كثرةِ الأشواق لم أعد أفهمُ نفسي!

إنّني أخافُ كلَّ الخوفِ أن أفقدكِ يوماً، ألّا أراكِ

مجدداً.

أخافُ أن يأتي يومٌ لا أحادثكِ فيهِ صباحاً و مساء.

أخافُ من عتمةٍ يطلعُ البدرُ لينيرها و لا تطلعينَ في عتمةِ

لياليّ لتنيري أحلامي.

أخافُ من غدٍ لا أرسمُ فيهِ بعدَ غدٍ معكِ!

في الحرب ..

لا تنتظر غداً لتخبرَ أحدهم بحبّك ..

قد تحضنُ الحربُ أحدهم ذاكَ كضحيةٍ قبلَ كلماتكَ يا عزيزي!

أَ ترينَ يا شوق؟

قد باتَ التفكيرُ بكِ أكبرُ همومي ..

و عندما أحزنُ أذكركِ كي أنسى همومي!!

قاطعتني قائلةً:

- ريم، أَ أفهمُ من ذلكَ أنّكِ تفتقدينني على الدوام؟

أجبتكِ:

- إنّ بعضَ الظنّ إثم ..

إيّاكِ أن ترتكبي إثماً عندَ ظنٍّ منكِ أنّني لا

أفتقدكِ!

قلتِ لي حينها:

- أَ أخبرتكِ اليوم كم أحبكِ و أشتاقكِ أكثر؟

قلتُ لكِ:

- إذا صادفتِ قلبي يوماً أبلغيهِ سلامي و ادعي

لهُ بحياةٌ هنيئةٍ في أحضانِ روحك.

لا أدري حينها ما الذي جعلكِ تضحكين، لكنّكِ ضحكتِ بعدما اشتقتها ضحكتكِ كثيراً.

شوق عزيزتي ..

أخبركِ سراً؟

مَن قالَ أنَّ المرءَ يلقى الجنّةَ بعدَ الموت؟

الجنّةُ في ضحكتكِ هي التي تجعلني على قيدِ الحياة!

قرأتُ يوماً:

„النصوصُ المؤلمة إيّاكَ أن تقرأها مرّتين!„

هذا يشيرُ إلى مدى كميّةِ الألمِ الذي سنشعرُ بهِ في المرّةِ الثانية.

بعضنا يعيشُ الواقعَ المؤلم كلّ يوم، في واقعهِ أو حتّى ذاكرته.

عساها كم كميّةُ الألمِ التي تسكنُ قلوبهم؟

كم هوَ ذاكَ الألمُ كبيرٌ على قلبٍ واحد؟

قلبٌ صغيرّ، عينان ملائكيتان و شفاهٌ متعطّشةٌ لضحكة

تندهُ: اتركوا أمي، دعوها و شأنها.

يحاولُ أن يندهَ بأعلى صوته. يريدُ أن يفعلَ أيّ شيء. يحاولُ

مساعدتها و هي تندهُ: اذهب من هنا، لا تنظر!

يطيلُ النظر، عيناهُ تشهدُ الواقع و تأبى أن تُغلقَ نفسها و لو

للحظة.

ما لا يأخذوهُ بالرضا، قد حاولوا أخذهُ بالعنف. قد كانَ فقط أن قالت أنّ طفلها ابنَ الخامسة لا شأنَ لهُ بالحرب و لا يمكنهُ أن يتعلّمَ حملَ بندقية.

و قد كانَ أن أجابوها باغتصابها على مرأىً من ابنها.

تخبريننني يا شوق: هؤلاء لا قلوبَ لديهم!

لا، هم يملكونَ قلوباً تجعلُ منهم على قيدِ الحياة و لكن لا على قيدِ الرحمةِ و الإنسانية!

كثيراً حاولت ردعهم، يغتصبونها و هي ترجوهم ألّا يفعلوا ذلكَ على مرأى من عينيّ ابنها.

كم كانوا لطفاء، كانَ لها ما تريد!

بطرفِ السلاح كانوا قد أودوا بالطفلِ أرضاً، شهيداً، غارقاً في دمائه. بمكنهم أن يكملوا ما بدأوهُ الآن على غيرِ مرأى من عينيّ ذلكَ الطفل. مِن أثرِ الصدمة راحت مغشياً عليها!

أكملوا ما بدأوهُ دونَ صراخِ ابنها أو مقاومةِ ابنها!

أينَ كانت هذهِ القسوةُ مختبئةً قبيلَ الحرب؟

مختبئة، و هذا يعني أنّها قد كانت موجودةً و لكن لم تُظهر نفسها إلّا في تراجيديا الحرب.

أي أنّ الأشياءَ التي علمنا بها اليوم لا تلغي أن كانت موجودةً من قبل ..

قد كانَ خطؤنا فقط أن اكتشفناها متأخرة!!

أَ تعتقدينَ يا شوق أنّنا لم نكن لنكتشفَ تلكَ القسوة لولا الحرب؟

آآه منها تلكَ الحرب!..

قلتِ لي عندها: لو أنّ الحروبَ تنتهي!

لا، لا تدعي بانتهاءِ الحروب بل ادعي للجميعِ بالحب و عندها لن يتبقّى للحروبِ من وجود، أن يحبّوا بعضهم باسمِ الإنسانية، أن يحبّوا بعضهم بنبضِ القلبِ الذي يملكونهُ!!

كم أشبعتنا هذي الحربُ انكسارات، لربّما كي نلتهي بها لتنسانا الحياة. فالحياةُ أقوى من أن تنتظرَ أحدنا إذا ما

انكسر كي يلملمَ بقاياه، بكلّ هدوءٍ تتركهُ و ترحل!
و لكن مع ذلك فالحياةُ رحمة. ما مِن أحدٍ منّا لم يكسر قلبهُ شيء، و ما مِن أحدٍ إلّا و شتّتت أفكارهُ أشياء.
كلٌّ منّا يحتاجُ وقتاً ليلملمَ بقاياهُ و ذكرياته، و هذا الوقت يتغيّرُ طبقاً لعمقِ الانكسار. و لكنّنا نحتاجُ أن نفعلَ ذلك أسرعَ ما أمكننا و إلّا لن نلحقَ بالحياة!

الورودُ تنمو، في أيِّ تربةٍ كانت ستنمو. ما مِن وردةٍ أجهضت بذرتها. لكلِّ وردةٍ منّا مكانٌ على هذي الأرض، لكلِّ وردةٍ منّا عطرٌ عليها أن تنشره.
كلّنا ورود، و لكنَّ مقدارَ القسوةِ أو النعيم الذي نتعرّضُ لهُ هوَ الذي يحدّدُ طبيعتنا و كيفَ سنكون.

كلّنا ورود، كلّنا بدأنا في لحظةِ إلقاحِ البذرةِ في تربةِ الحياة.
و فيما بعد حكّمت علينا ظروفنا و النَّاسُ من حولنا أيَّ ورودٍ سنكون.
كلّنا ورود و سنبقى كذلك مهما اختلفت أسامينا!
قلتِ لي عندها:
„كم من ورودٍ ذبلت، و كم من ورودٍ هشّت أرواحها لكنّها ترفضُ الذبول!

أَ تعتقدينَ أنَّ مصيرنا سيكملُ بما هوَ عليهِ الآن؟„
قلتُ لكِ عندها و الإيمانُ يغمرُ بتلاتي:
سبحانهُ الله قد كتبَ لنا روايتنا في الحياة.
حاشاهُ أعظمُ و أرحمُ مؤلّف أن يبتدأ الرواية و يتركنا عندَ أحدِ الصفحات ..
قد ابتدأ روايتنا بصرخةِ فرحٍ كتذكيرٍ لنا أنَّ معَ العسرِ يسرا، و سينهيها فرحاً بإذنه!

حاشاهُ أن يبخلَ علينا بسعةِ حكمته و جميلِ عطائه!

هناكَ حكمةٌ منَ النسيانِ و الألمِ أحياناً، ففي نصِّ الألم

علينا الارتجالُ بالنسيانِ قليلاً!

إنَّ الفرحَ في طريقهِ إلينا ..

إنَّ الله لا يؤخّرُ ميعادَ فرحتنا بل إنّما يرزقنا بها على وقتِ

ميعادها الذي يجعلنا نسعدُ بوقتها!

شوق!

لا أدري لِمَ أسألُ هذا السؤال و لكن أنارَ مساحةً في عقلي

فقلتُ أن أشاركِ بهِ يا مَن تشغلينَ كلّ مساحاتِ

عقلي.

عندما نربّتُ على أحزاننا بقولِ „إنّ الخيرَ قادم„، أَ نكونَ

غافلينَ حينها عن خيرٍ نعيشهُ الآن؟

أي أنّنا نتناسى الحاضر تفكيراً بالمستقبل؟

أي أنّنا نُعمي عيوننا بالأفقِ البعيد دونَ النظرِ للبقعةِ التي نقفُ عليها؟

أم عساهُ يا تُرى الخيرُ الذي نعيشهُ اليوم هو نتيجةُ ثقتنا بالخيرِ القادم الذي صارَ خيرَ الآن؟!

و على ذكرِ الأفق ..

لربّما أمكننا أن نشبّهَ الحياةَ بمشاكلها كما المشي في الغابة، أي أنَّ أحدنا عليهِ أن ينظرَ أمامهُ مباشرةً. ما يجبُ علينا عندَ الوقوعِ في مأزق أن ننظرَ بعيداً و إلّا عرقلتنا إحدى الأغصانِ اليابسة في الغابةِ الظلمة. علينا أن نركّزَ على النقطةِ التي تلامسُ وقعَ أقدامنا الآن و على النقطةِ التالية، لا على نقاطٍ بعيدةِ الأفق!

و أحياناً كثيرةً يا شوق يكونُ قرارنا أن ندخلَ الغابة، و يكونُ قرارنا أن نقعَ في المشاكل!

لا يحمّلنا الله ما لا طاقةَ لنا به، بل إنّما نحنُ أحياناً نحمّلُ أنفسنا.

أحياناً يكونُ قرارنا بالحفاظِ على الأمل هو ما يجعلنا نتعرقلُ أكثر!
أملٌ لسنا على ثقةٍ بواقعهِ، لا أملَ منهُ!
أَ تدرينَ يا شوق، نحنُ أكثرُ الظالمين لمعنى كلمةِ أمل لأنّنا نطالبُ بهِ و عندما يأتي، غالباً ما لا نشكرُ عليه!

قد رسمنا آمالاً كثيرةً في سوريا، لم نكتفِ بالرسمِ فلوّناها،
و عندما انتهينا من تلوينها عرضناها على أكبرِ الفخورينَ بنا، سوريا.
أخبرنا سوريا أنّنا نريدُ للمستقبلِ أن يكونَ كذا و كذا ..
و نريدُ أن نصبحَ كذا و كذا ..
نريدُ أن نقومَ بـ كذا و كذا ..
نريدُ لأحلامنا التي هي كذا و كذا أن تصبحَ واقعاً ..
طبعنا على كلِّ أملٍ قُبلة و أرسلناهُ لنجومِ الأحلامِ في قاسيون!
قد خطّطت سوريتي لكلّ شيء ..
اشترت منّا أحلامنا لوحاتٍ لتبنيها لنا واقعاً ..
رسمت لنا المستقبلَ بكلِّ فرحٍ، لهفةٍ، حنانٍ و فخر ..
و عندما جاءت الحربُ تركنا سوريا الأمَّ و الوطن ..

تركنا أحلامنا لها، لسوريتي، لتتعلّقَ بها و تواسيها!

كم أنّنا أنانيونَ نحن!!

أجبتِ منتفضةً:

إيّاكِ و قولُ هذا مجدداً ..

"نحن" التي ذكرتها تشتاقها سوريا، و ستعودونَ يوماً لتبنوا الأحلامَ معاً.

لا أدري!

لربّما كانَ عليّ أن أفكّرَ قبلَ أن أنطق، و ذاكَ أنّهُ ما علينا

أن ننطقَ كلّ ما نفكّرُ به!

على كلٍّ حال، إن كانَ تصرّفنا أنانيةً أم لا فإنَّ سوريا ستبقى عوالمَ الحنان!

جميعنا قد ارتكبنا أخطاءً في هذهِ الحرب، تتفاوتُ ما بينَ أخطاء و جرائم. قد كانَ خطأي الوحيد هو أن رحلتُ عنكِ يا شوق. لكنّني لم أرحل، سأعودُ يوماً!

قد كان خطؤنا الأكبر هوَ أن تناسينا الوطنَ العربي بالدفاعِ عن كلِّ وطنٍ على حدا.

شغلوا البلدانَ كلٌّ منها بنفسهِ كي يتسنّى لهم تفرقتنا. و من ثمّ راحَ كلٌّ منّا في الوطن يدافعُ عن نفسهِ متناسياً الوطن!

أي أنّنا نتوهُ أكثر كلّما ازددنا أنانيةً!

و لكن ما ذنبنا؟

هم مَن جعلوا منَ الأوطانِ غابةً و راحَ بعضنا يتكيّفُ بكونهم وحوشاً فيها!

سنتعلّمُ من أخطائنا و ستتركنا الحروبُ و ترحل عن أوطاننا .. أو ربّما ..

نحنُ لا نتعلّمُ من أخطائنا، بل أخطاؤنا هي التي تتعلّمُ أنّنا أصبحنا أقوى فتعلنُ الإضرابَ عنّا!

سألنا الحروبَ منذُ مئاتِ السنين عن أيّما كانت ستنتهي. كانت قد قالت قريباً. كانت تذكرُ في كلِّ مرّةٍ شروطاً أكثر و تطلبُ ضحايا أكثر.

كانَ عليها أن تصدقَ و تخبرنا. لذلكَ يعدُّ الصدقُ أفضل. كي لا تظهرَ حقيقةُ المرءِ أنّهُ كاذبٌ عندما يحاولُ تذكّرَ كذبتهِ كيفَ كانت!

واجهنا الحربَ بحقيقتها الكاذبة، هي لم تتوقّف قريباً. صبرنا قليلاً كما طلبت منّا و لكن قليلاً تلكَ إلى متى ستمضي؟

في حديثٍ لي مع عدّادِ الحرب ..

- متى ستتوقّفُ عن الكذب؟
- ها أنا توقّفتُ مرّاتٍ عدّة!

قد توقّفَ باسمِ الهدنة ليخبّئ لنا فواجعَ أكبر!

نحنُ نعلمُ أنَّ الحروبَ لن تنتهي يوماً! ..

لكنّنا أحياناً نقبلُ الكذب حتّى نحمي قلوبنا من تعويذةِ خذلان!

في هذي الدنيا ستلقى وحوشاً توهمكَ بكونها ملائكة ..
ستعتقدُ على غيرِ ذنبٍ منكَ أنّهم ملائكةٌ من نور تُنيرُ حياتك ..

نعم ..
هم ينيروها كشعلةِ نورٍ من شمعة ..
و لكن لا تنسى أنّ الشمعةَ يغفو نورها عندَ لحنِ أوّلِ نسمة!
و هكذا هي الهدنة، تسكتنا في الجوّ الحلو و تُظهرُ الوحشَ داخلها
عندما تحلُّ عليها عواصفُ طمعٍ و شر!

_____

- كلُّ ما نحيا لأجلهِ هوَ السلام، و هوَ أكثرُ ما قد باتَ ينقصنا!
- شوق ..
هل على كلماتي أن تكونَ شعراً أم نثراً لتحقّقَ

السلام؟

- عليها فقط أن تكونَ صادقة!

في أحاديثي معكِ أنسى أنّني أحادثُ أحداً غيري، لعمقِ ما أنتِ فيني أشعرُ بي أكلّمُ نفسي!

لستُ أذكرُ كيفَ ابتدأنا الحديث لكنّي أذكرُ ما آلَ إليه.
لربّما كنّا نتحدثُ عن „لكلِّ قاعدةٌ شواذ„ أو ربّما عن الموت و لربّما عن الوطن.
كانَ فحوى الحديث:
ذاكَ أنَّ الشاب كريمٌ و أنيقٌ في حبّه .. يهبهُ لعدّةِ حبيبات .. لا يمكنهُ أن يحبَّ بكلِّ كلّه لذلكَ يقسمُ نفسهُ على عدّةِ محبوبات.

و ذاكَ أنّ الفتاةَ انتقائيةٌ أنيقةٌ في حبّها .. لا تهبهُ إلّا حبيباً
واحداً .. تعشقُ بكلّ ما فيها و تهبُ نفسها هديةً للحب!
و لكن ما كلُّ الشبابِ كرماء و ما كلُّ الفتيات انتقائيات!!
لكلِّ قاعدةٍ ما يشذُّ عنها، بل لا بدَّ لكلِّ قاعدةٍ أن يكونَ
لها شواذ ..
شواذٌ إيجابية أو سلبية ..
ففي هكذا حالة لن يكونَ المجتمعُ شاذاً بمثاليّته و لا بانحرافه!
حتّى أنّ الحياةَ تشذُّ عنها القاعدةُ بالموت ..
فما مِن امرؤ يحيا حياةً أبديةً ..
و لكن في أعجوبةِ الحرب قد باتَ للموتِ شواذٌ بالحياة ..
أن يكونَ المرءُ لا يزالُ على قيدِ الحياة يعدُّ أعجوبةً غيرَ
مألوفة تحملُ الحظَّ و الذهلَ الكثير!

في زمنِ الحرب باتت القاعدةُ أنّهُ ما مِن أحدٍ بقي كما
عهدناه ..
و أمّا ما يشذُّ عنِ القاعدة فهو كونُ أنّهُ لا زالَ هناكَ أوفياءٌ
لم تغيّرهم الحرب!!
و لكن حتّى الأوفياء ذاتهم عاشوا ظروفاً لا يقوَ على حملها أحد ..
هم أيضاً تغيّروا!
السلامُ كانَ قاعدتنا الأولى و قد شذّت عنهُ الحرب، و منَ الحربِ
نشأت قواعدَ جديدةً ملخّصها الأنانية، الطمع و الظلم!
الحبُّ تشاركية!
تشاركيةُ أحداث .. تشاركيةُ أفكار ..
تشاركيةُ مكان .. تشاركيةُ زمان ..
تشاركية ضحكة .. تشاركية دمعة ..
تشاركية فرح .. تشاركية حزن ..
تباً لمن يريدونَ منَ الوطنِ تقسيمهُ و منهُ امتلاكَ أجزاء ..
أوَ ما كانوا يعلمونَ أنَّ الوطنَ حب .. و الحبُّ تشاركية؟!

- لقد أضعتُ مفتاحَ السعادة ..
- لِمَ الحسرة؟

لربّما قد أنساكَ الله أن تتركَ البابَ موصداً

قبلَ أن يضيع!

ازدد أملاً!

- لكنَّ مياهَ الأملِ قد حفّت عندي ..
- لربّما تحفرُ في المكانِ الخطأ!

أمّا عيناكِ فهما للعاشقِ غرقاً ..

و أمّا أنا فلا رغبةَ عندي بالنجاة!

شوق ..

إلى الوطن، الأم، الحبيبة و الصديقة ..

إلى الشريانِ الثالثِ في القلبِ الذي يحملُ اسمكِ ..

و إلى الوريدِ الرابعِ الذي يعيشه!

أيّتها الوردة التي تتدفّقُ ما بينَ صمّاماتِ القلبِ بينَ

الأذينِ و البطين ..

أيّتها العذبة التي ما حدثَ أن رآها أحد إلّا و أيقنَ أنّها

أحلى من السكر!

ما أكتبهُ لكِ لا يعدُّ رسالة، بل إنّما كنزُ أسرار أخافُ

أن أفضحهُ لغيرك ..

ما بتُّ أنا كما كنت ..

لقد فاقت حدودُ حبّكِ في نفسي نفسها ..

أغارُ أن تكوني في داخلِ أحدهم أكثر ممّا أنتِ كائنةٌ في نفسي ..

فليكن هذا غيرة، أنانية و بل اعتبريهِ جنوناً أيضاً!

لكنّ حبّكِ و القهوة هما أولى الحسنات لتحليةِ روحي ..

و لتلكَ التحلية أرشُّ غيرتي!

أن افترقنا مسافات و ما افترقنا أرواحاً هي كذبةُ الفراق و
ليست أكثر!

لطالما كنتُ أكرهُ الكذب، و لكن اكتشفتُ مؤخراً أنّ الفراقَ
أشدُّ وقعاً على القلبِ بكثير! ..
و لكن فلتكن كذبةُ الفراقِ تلك كذبةٌ بيضاء، لطالما توحي
إلى أنّ اللقاء سيمحو المسافات و يعطي مجالاً حلواً للأرواحِ بعناق!

أكتبُ لكِ بمشاعري لا بحبرِ قلمي ..
على يميني كوبُ قهوة و صوتُ فيروز ينده "بعدك على بالي على بالي"
أنا و قهوتي .. ليتكِ معنا!

قد كنتُ أثقُ بكِ ..
و قد كنتُ أتوقّعُ منكِ كلّ الوفاء ..

إلّا أنّني عندما رحلتُ عنكِ اكتشفتُ أنّكِ قد كنتِ لصّة!
أكثرَ اللصوصِ احتراماً و قرباً إلى قلبي ..
أَ سمعتِ يوماً بمسروقٍ يحبُّ سارقهُ؟
أنا أعشقكِ أيّتها اللصةُ اللطيفة! ..
لا تعيدي إليّ قلبي الذي سرقته!
فليبقَ لكِ هدية!

كم حضنتنني يا شوق، أراكِ اليومَ حزينة، أما آنَ لي أن

أحضنكِ أنا؟!

المشاعرُ كالقهوة، لا أحدَ يحبّذها باردة ..
كوبُ القهوةِ يكتبُ لكِ الآنَ ليخبركِ أنَّ قهوةَ الأشواقِ
صارت تغلي!
لو أنّ شوقي بحراً لجفّت مياههُ لكثرِ ما تجرّعتُ منها!

و أمّا قبل ..

ما عرفتُ تعريفاً للحبِّ قبلكِ ..

و الآنَ باتَ تعريفي للحبِّ أنتِ!

و أمّا بعد ..

فإنّ هناكَ قاعدتين للعشقِ في قلبي ..

الأولى: هي أن أعشقَ كلَّ الأشياءِ الجميلة ..

الثانية: هي أنَّ كلَّ الأشياءِ الجميلة هي أنتِ!

كم حاولتُ بعظيمِ جهدٍ أن أُبقي حبّكِ سراً لي و لقلبي، لا أريدُ لأحدٍ أن يفسده، أكرهُ أن يشاركني أحدٌ آخر بحبّي لكِ.

كم حاولتُ بعظيمِ جهدٍ أن أُبقي حبّكِ سراً، و لكن بذكركِ تُفشي عينيّ بكلِّ الكلمات!

بوجودكِ أعرفُ مساحاتٍ جديدةٍ في قلبي ..
و بدونكِ أفقدُ كلَّ قلبي!
أينَ أنتِ منّي أنا؟
لستِ في أوردةِ قلبي، و لستِ في الشرايين، بل إنّكِ في
الصميم. و هكذا مهما هبّت عواصف لن يكونَ بإمكانها
أن تأخذكِ من قلبي معها!
أنتِ الجذورُ في القلب و ما عداكِ ليسوا سوى أغصان!

فريدةٌ أنتِ!
بإمكانكِ أن تدخلي كلَّ القلوب، حتّى تلكَ التي رسمت حدوداً
لعبورِ مساحاتها تجدينها تقبلُ بعبوركِ حدودها دونَ جوازِ سفرٍ
أو أوراقٍ ثبوتية!

لا زلتُ أصلّي ..
لا لأجلي ..

بل لأجلك ..
أصلّي لأجلِ وطنٍ يصرخُ سلاماً و رحمة ..
أصلّي لأجلِ شعبٍ يريدُ أن يفرحَ باستجابةِ دعاء!

أحاولُ أن أنساكِ قليلاً ..
أحاولُ أن أفكّرَ بما يعنيني ..
و لكن كيفَ لي أن أنساكِ و أنا أبقى بتذكيرِ نفسي بنسيانك؟
كيفَ هذا و أنا أنشغلُ بكِ لأنساكِ؟

البارحة صادفتُ عجوزينِ بالقطار. كانت حزينةً و راحَ يواسيها و يداري حزنها.
الحبُّ الحقيقي يا شوق ليسَ الذي نعطيهِ هذي اللحظة.
الحبُّ الحقيقي هو الذي لا ننفكُّ نعطيهِ مهما كبرنا و حتّى لو تغّيرت ظروفنا.
حبُّ اللحظة هو حبٌ مصيرهُ الزوال، لكن حبُّ كلِّ وقت هو الحبُّ الذي يدومُ على طولِ الدّهر!

لا أحبّكِ حبّ وقت، فالوقتُ سينتهي يوماً.
أحبّكِ على توقيتِ قلبي، إذ أنّهُ وقتٌ سرمدي!
أحبّكِ كما لو أنّكِ الثانية الوحيدة القابلة للحياة المتبقيّة على وجهِ هذا الكوكب!

كما وعدتكِ، أحاولُ جاهدةً ألّا أحزن.
إنّني أخشى على قلبي من الحزن خيفةَ أن يكونَ على مقربةٍ

منكِ في القلبِ فيؤذيكِ!
لن أخبركِ أنَّ حزنكِ هو حزني ..
سأكتفي بإخباركِ أنَّ حزنكِ يُعتمُ قلبي و يجعلُ كلَّ أمطارِ السماء تهطلُ من عينيّ أنا، و لتفهمي وحدكِ كم حزنكِ يعنيني!
لهذا أحاولُ أن أجعلَ جُلّ صباحاتي، مساءاتي و كلَّ أوقاتي سكرٌ كما أنتِ!

شوق ..

أشتاقكِ جداً، و هل لثلاثةِ أحرفٍ أن تصفَ عمقَ أشواقي؟!

أشتاقكِ جداً لدرجةٍ فاقتني فكادت تبتلعني!..

قد يخبركِ أحدٌ آخر بها ..

يمكنهم سرقةُ الكلمات، لكن ليسَ بإمكانهم سرقةُ الشعورِ الذي أكتبهُ بها!

كلماتي تهربُ من أعماقِ كلّي كي تصلَ إليكِ ..

ما حاجتي لكلماتٍ إن لم تسمعيها ..

ما حاجتي لكلماتٍ يقرأها الجميعُ إلّا أنتِ؟

أنتِ مَن أعنيهِ بكلماتي، و شعوري الصادق يُرسلُ أشعتهُ نحوكِ أنتِ!

أنتِ التي تعنيني و مَن تبقّى فكلّهم عابرون!

الفتحةُ في العربية تعشقُ الضمّة، و هذا أنّهُ منذُ أن فتحَ قلبي
بابهُ للشوق قامَ الشوقُ بضمّهِ و استقر!
أشتاقكِ بكلِّ ما فيكِ!
و أمّا عن ضحكتكِ ..
قد حرّمَ الله كلّ ما يُذهب العقل إلّا ضحكتكِ!
و أمّا عن عينيكِ ..
لم تُكتب كلُّ القصائد من حلا عينيكِ كما قد قيل، بل إنّما
كلُّ اللغة!
و أمّا عن حضنكِ الدافئ ..
عمري بينَ يدي الله و من ثمّ بينَ أحضانكِ مع رشّةِ ياسمين!

بتُّ أنتبهُ لما أقول ..
لم أعد أحكي „عشقي أنتِ و نِعْمَ العشقِ أنتِ„
صرتُ أحكيها كما طلبتِ „عشقي أنتِ و نِعْمَ العشقِ نحنُ„

قد أطلتُ بكنزِ أسراري كثيراً، و مع ذلك لم أفضح كلّ ما يعتريني!

سأتركُ القليلَ لنفسي ليواسي أشواقي.

اعتني بنفسكِ جيّداً كي أشعرَ أنّي بخير.

و أخيراً ..

فليفكّر كلٌّ منّا بما يعنيه، أنا بكِ و أنتِ بي!

أحبكِ و أشتاقكِ جداً!

ريم

.

.

.

.

.

إلى ريم التي ما فارقت أحضاني رغمَ أن فارقَتها ..

إلى التي أراها بقلبي لا بعينيّ ..
إلى التي أحبُّ ضحكاتي التي هي سببٌ في كثيرٍ منها ..
حتّى أنا لم أعد كما كنتُ أنا ..
أراني أتمزّقُ أكثر، تبكي أجزائي أكثر ..
و بكلِّ أجزائي الممزقّة أحبكِ، كما قالَ الحلاج:
و الله ما طلعت شمسٌ و لا غربت
إلاّ و حبّكِ مقرونٌ بأنفاسي!

أشتاقكِ جداً ..

اشتقتكِ البارحة و اليوم و في غدِ
انتظرتكِ و لم تأتي، فتعالي بعدَ غدِ!

نحنُ لسنا كتلاً من لحم بل إنّما كتلٌ من آمالٍ منتظرة ..
في قفصي الصدري، في الصميمِ لعضلةٍ تقعُ على يسارهِ تضخُّ دماً،

هناكَ يقطنُ أملي بلقائكِ!

قد كتبتِ لي في رسالةٍ سابقة هذي الكلمات:

„و أمّا بعد ..

فإنّي أدعو الله أن يثبّتَ عليَّ قلبي و حبّكِ

و يثبّتَ حبّكِ بقلبي ..

و يثبّتَ قلبكِ على حبّي!!„

و الآنَ أتى دوري لأجيبكِ على تلكَ الكلمات:

„كوني على يقينٍ أنَّ الله استجابَ ذاكَ الدعاء، و مع ذلكَ فـ آمين„

كلُّ حرفٍ منكِ أعدّهُ كتاباً، يا لعظيمِ المكتبة التي اتّسعت مساحاتها في قلبي!

ريم ..

لا زلتُ أندهُ لكِ باسمكِ، فلِمَ لا تفعلينَ أنتِ؟

كفاكِ تناديني شوق ..

ناديني لقاء عساكِ تخونينَ الغربة و نلتقي ..

ناديني سلام عساهُ يباركُ أرضي ..

ناديني ياسمين، أوَ ما قلتِ لي من قبل أنّ قلبكِ يحلّقُ

في فضاءِ حبّكِ و من ثمَّ يحطُّ على غصنِ ياسمينة؟

ناديني معجزة كي أتغلّبَ على الحرب ..

ناديني ..

ناديني باسمي الحقيقي كي تختصري كلّ ما سبق!

أجل ..

ناديني سوريا!

سوفَ أتحسّن!

لا يضيعُ حقٌ وراءهُ مطالب ..

الحقُّ سيبقى على قيدِ الحياة، لكنَّ المطالبَ سيُقتل ليحملَ أحدٌ

آخرَ شعاره، فيُقتلُ ذاكَ المطالب أيضاً فيحملُ أحدٌ آخر شعاره ..
و هكذا سيبقى شعارُ „لا يضيعُ حقٌ وراءهُ مطالب„ قيدَ دوّامتهِ
إلى حينِ يأتي المطالبُ الأخير الذي يُعلنُ أنّهُ ما ضاعَ حقٌ وراءهُ
ألفُ مطالبٍ و أعوامٌ منَ الزمن!

و أخيراً ..
سأفكّرُ بكِ ..
بعدَ التفكير، فلتسقط السين، فأنا دائماً ما أفكّرُ بكِ!
اعتني بأمّكِ، يعني أن اعتني بنصيبكِ منَ الجنّة ..
اعتني بقلبكِ و أرسلي لهُ منّي قُبلة ..
اعتني بروحكِ و أرسلي لها منّي عناق ..
اعتني بكلِّ كلّك كي أكونَ بخير!
أحبكِ و أشتاقكِ جداً!
سوريا في القلب،
شوق في نبضاته
.
.

إلى شوقي سوريا

تحيةً طيبةً أتمنّى لو تتحوّلَ لعناق، و أمّا بعد ..

شكراً لكلماتكِ التي تقلبُ قلبي رأساً على عقب، تسرقني منَ الدنيا و تعيدني على قيدِ الحياة!

معكِ حق ..

كم هي سخيةٌ الأبجدية، ٢٨ حروفاً، و أنا تكفيني خمسةُ حروف، اسمكِ سوريا ..

لا أحدَ مثلكِ أنتِ، و لو كانَ هناكَ أحدٌ فلستُ أريدُ سوى أنتِ!

لا زلتُ أشتاقُ للمستقبلِ معكِ ..

هناكَ حيثُ يوجد أشياءَ أشتاقها الآن!

سأعتني بكلِّ ما يجعلكِ و أمّي سعيدتين ..

كلتاكما وطني، و أنا بلا أنتما غربة!

أشتاقكِ اليوم أكثرَ منَ البارحة و أقلّ من غد!

ريم

*****

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع